

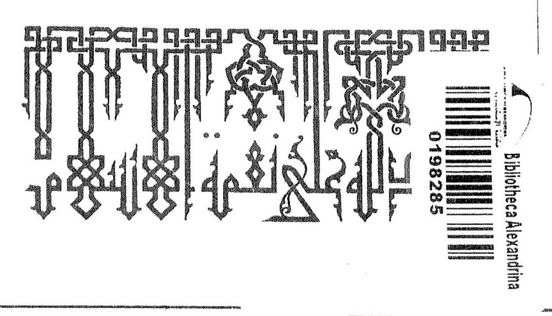
الدكتور ابراهيم جمعة

المدرس بالخديو اسماعيل ومعهد الآثار الاسلامية

بجامعة فؤاد الأول

القومية المصرية الإسلامية

مرحلة التكون



الدكتور ابراهيم جمعة

القوميّة المِصريّة الإسْلاميّة

بحث فى القومية المصرية

وتكون الامة المصرية الاسلامية

مطبعة كوستا تسوماس وشركاه تليفون ٤٤١١٦٨

مقـــــدمة

هذا بحث فى القومية المصرية وتكوّن الأمة المصرية الأسلامية ، دفعنى إلى كتابته دفعاً شعور قوي بحيوية هذه الأمة وحسن بلائها ومجالدتها لأحداث الزمن ، وإيمان متين باتساق الصلة بين القومية المصرية القديمة والقومية المصرية الأسلاميه ، حتى لقد يصح القول بأن هذه القومية الأخيرة ليست إلا مظهراً من مظاهر الروح الاستقلالى الذى تمكّن من النفس المصرية فى كل ما مر بها من أحداث ، فمكّنها من الخلاص من ظلم الأجنبي وجوره .

فهو إذن بحث مزدوج الغاية ، أنشد به إثبات حقيقتين كبيرتين : الأولى أنه كان لمصر فى عصورها التاريخية المختلفة ، ما يكون عادة للأمة المكتملة الصفات ، من وحدة الأصل والتقاليد ، رغم اختلاف أصناف الناس من أثر هجرة أو فتح ، فقد طبعت البيئة المصرية كلّ من نزل هذا الوادى الخصب من مختلف الأجناس بطابعها الخاص وصقلتهم بصقالها ، حتى عُدّ نزلاؤها على الزمن مصريين بحكم المعاشرة والاشتراك فى المصالح والأرزاء . هذه الأمة التى نشأت لها وحدة متجانسة فى الأخلاق ، تجلت فى طريقة تفكيرها وأسلوب عملها ، والتى اجتمع أبناؤُها فى كل عصر من عصورها على وحدة من الآمال والأمانى ظهرت فى حبّهم لها ، وبذلهم النفس والنفيس من أجل سلامتها واستقلالها وتحقيق السيادة الخارجية لها ، هى التى خصصناها بالبحث فخورين معجبين بجلدها وصمودها واستبسالها !! والثانية — أن تلك السلسلة الطويلة من الأجيال اليقظة المتعاقبة ، قد مهّدت السبيل بجهادها للأسلام ،

الذى جاء علاجاشافياً لعلل هذه البلاد الاجتماعية ، ومنقذاً لها ومُخَلِّصاً من حكم الروم الجائر .

ويقيني — أنى استطعت أن أثبت الرأى القائل بأن أمة مصرية إسلامية تكونت غداة الفتح ، لها كل مشخصات الأمم الحية فى السياسة ، والمثل العليا ، والفن ، والأدب ، وغير ذلك من مظاهر القومية ، هى الأمة التى تمت لها شخصيتها الأسلامية فى العصر الطولونى ، ودرجت بعد ذلك فى سبيل الاكتمال والنضوج كل ظاهرة من ظواهر حياتها حتى غدا لها من الشأن مالها فى العصر الحاضر .

ولقد كانت طريقتى التى لم أحد عنها — وأنا أكتب هذه العجالة — أن امسّ الرأى السائد ، أو النظرية المعروفة مسّاً خفيفاً ، لا أخوض فى التفاصيل ، ولا أعمد إلى الأفاضة ، وقصدى من ذلك بقاء الفكرة التى أعالجها متصلة فى ذهن القارىء لا يصرفها عنه صارف من توسع أو تدقيق . واللهَ أسأل أن أكون قد وفقت إلى بلوغ الغاية مما قصدت اليه ، وهو الهادى إلى سواء السبيل .

المؤلف

القاهرة فى مايو ١٩٤٤

١ ـ خلقنا للعزة والقوة

نحن أصل ما فى هذا العالم من تقدم ورقى ـ علّمنا الأوائل واستدرجنا الأمم الى حظيرة المدنية ـ مدنيتنا غازية مؤثّرة لا متأثرة ـ نطبع الأمم بطابعنا الخاص ـ نجمنا السياسى يتألق فى سماء العالم المعروف قديما ـ نحمى المدنية من عبث الآريين ـ نرفض حكم الأجنبى فى إباءٍ وشمم ـ روح القومية تسرى فى نفوسنا مسرى الدماء فى العروق ـ ننزع عن أنفسنا نير الغاصب ونسلك فى ذلك سياسة « الظروف » ـ نقابل الحضارة الهلينيـــة بعقل يفهم الحضارة فلا يعاديها ـ نهادن حضارة الاغريق ونغزوها بخصائصنا كما غزونا حضارة الفرس من قبل ـ أقطاب الفكر اليونانى تلاميذ للمصريين ـ اللقاح المصرى فى الفنون الكلاسيكية الأوربية ـــ نعسّر الأجنبى إن لم نستطع أن نجليه عن بلادنا ـــ يقظة العقل المصرى وادراكه أفاعيل الأجانب .

تحدثنا المصادر التاريخية ، ويؤيدها ما ورد فى « العهدالقديم » ، وما عثر المنقبون عليه مسجلا فى صفحات البردى ومنقوشا على الألواح الحجرية التذكارية وعلى جدران المبانى المصرية ، مما يرجع بنا إلى أكثر من ٤٠٠٠ عام قبل ميلاد المسيح ، عن مدنية مصرية ازدهرت فى بلادنا مستمدةً عوامل نموها من النيل والخِصب والصحراء : فمن النيل استمدت الحياة ، ومن الخصب مقومات هذه الحياة ، ومن الصحراء وِقايةً لنموها الوئيد المنتظم .

قطعت الحضارة المصرية الأولى فى عصور ما قبـــل التاريخ شوطا طيبا ظهرت آثاره جليةً واضحة فى مدنيـة « ديرتاسا » ومدنيـة « البدارى » فى صعيد مصر (١) سابقتين على مدنية العصر التاريخى الذى تحدثنا

(١) سيردنسون روس Sir Denison Ross, The Art of Egypt through the Ages.

عنه المصادر اليونانية واللاتينية ، وتزيدها وضوحا وتدعيما كتابات البردى والنقوش الحائطية التى أثبتتها فى الصخر يدٌ كبيرة المران ، انقادت فى حركتها لفكر قوى متزن .

ويميل بعض المؤرخين إلى الشك فى أن الحضارة المصرية أقدم الحضارات ، ويذهبون إلى أن المدنية ظهرت فى مصر «وسومر» فى جنوب الجزيرة العراقية فى وقت واحد ، ولكن الذى لا يختلفون فيه هو أن تلك العزلة المنيعة التى توفرت لمصر ، باحاطتها بالصحارى ، مكّنت لها من السير المنتظم فى سبيل الرقى البشرى أكثر مما مكنت بلاد «سومر» ، وغدت مصر بسبب هذه الحماية الطبيعية أقلّ تعرضا من «سومر» لهجمات البدو(١) من أعداء المدنية .

هنا — فى هذه العزلة المنيعة ، وعلى ضفاف النيل ، عرف القوم أساليب المعيشة المتحضرة قبل أن ينجاب الظلام عن أمم الأرض طرًّا — عرفوا الزراعة والصيد والتجارة والحرف على اختلافها - وصوّر لنا مُصوّرهم من هذه النواحى المعاشية صوراً بارزة على جدران القبور تمثل زرعاً وصيداً ونسجاً وتجارةً ومهناً مختلفة ، وهندس مهندسُهم المبانى المدنية والدينية فجاءت غاية فى الروعة والقوة ؛ وصدر عن العقل المصرى الأول أقدم ما عرف العالم من الحكمة والطب والكيمياء العملية ، وإليه يعزى اختراع أقدم أنواع الكتابات .

فى هذا الخدر الآمن ، درجت المدنية المصرية ، ونمت وترعرعت ، وكان من حسن حظها أن نيطت أموزها بشعب دائب الجد ، ذكى .

(١) هـ . ج . ولز H.G.Wells, Outline of History.

وقدر لهذه المدنية بحكم سبقها أن تكون أُمّاً لتلك المدنيات الوليدةالتى ظهرت غداة نضوج المدنيـة المصرية، فى كثير من بلاد الشرق القريب، وجزر البحر الأبيض المتوسط الشرقى - فمن مصر سرى نور المدنيـة إلى سوريا والجزيرة، ومن ثم بطريق مباشر أوغيرمباشر إلى القوقاز والتركستان والهند، وجزيرة كريت وما وراءها من جزر بحر «ايجه» ثم إلى اليونان فأوربا بعد ذلك(١) .

ولعبت المدنية المصرية دورهاالجدّى عند مااتسعت رقعة الامبراطورية، فشملت الشرق الأدنى وضمت كثيراً من أطرافه فى حدود امبراطورية مصرية واسعة النطاق، رعاها وسهر على شئونها ملوك شداد - فى ظل سطوة «طوطميس الثالث» و «رمسيس الثانى» من ملوك الدولة الوسطى، وفى حكم الملك «نخاو» من فراعنة الدولة الحديثة، بلغت الحضارة المصرية أقصى اتساع لهامتمشية معرقعة الامبراطورية — حيث صحب الغزو السياسى غزوٌ مدنى أثّر فى الشعوب المجاورة تأثيره المنتظر، فاتخذت البلاد المفتوحة مُثُل المصريين العليا فى الدين والحيـاة؛ وأدّت الأساطير المصرية مهمتها فى تحضير تلك الأمم وترفيهها واستدراجها إلى حظيرة المدنية .

وأتيح للمدنية المصرية أن تبدو فى هـذه الفتوحات بخصائصها القوية، وما فى طبيعتها من قوة الغزو والتأثير؛ وتزعّـمت مصر منذ العصور الأولى بلاد الشرق الأدنى، وظل الحـال كذلك حيناً من الدهر ضعف فيه نفوذ مصر السياسى على تلك البلاد - فلم يضعف سلطانها المعنوى عليها، بل ظل باقياً فيها يساعد على انضاج المدنيات الوليدة واكتمالها . ولم تفقد الحضارة

(١) اليوت سميث Eliot Smith, The Diffusion of Culture, P.225 (Map)

المصرية قط حيويتها ومقدرتها على مغالبة الأحداث السياسية ، ولم ينس المصريون يوماً أنهم أصل ما فى هذا العالم كله من رقى وتقدم .

وانه لما يدعو إلى كثير من الغبطة ألا تتمكن الأمم التى أغارت على مصر، وأولها (الهكسوس) ملوك الرعاة ، من كسب قلوب المصريين بحال ، وفى ذلك يقول « ولز » (١) : —

« ان هؤلاء الفاتحين من الساميين لم يندمجوا قط فى المصريين ، بل لقد كانوا دائماً يُرمَقون بعين الكره كأجانب متبربرين » . — قضى على سلطانهم « أحمس » من أمراء الصعيد حوالى عام ١٦٠٠ قبل الميلاد فى ثورة عامة .

ويعلّق «ولز» على ذلك بقوله : « ان السومريين قبلوا الجنس السامى الذى أغار عليهم ، واندمجوا فيه اندماجا ، ونشأت من جراء ذلك الامبراطورية البابلية سامية اللغة والطباع والعادات ، بينما رفض المصريون الخضوع للجنس السامى ، ونجت بذلك مدنيتهم من خطر محقق كان يهددها بالزوال ، أو كان على أقل تقدير يحد من نموها المثمر المضطرد » .

وتجلت فى الثورة على « الرعاة » أول روح قومية مصرية ، فما أن فطن المصريون إلى أنهم بهذا الغزو قد فقدوا الحرية التى كانوا فيها ينعمون وتطيب لهم بها الحياة وتزدهر ، وتؤتى أكلها فى كل ناحية من النواحى، حتى هبوا هبة رجل واحد ، مجتمعة قواهم ، متهالكة على الانتقاض على ما خلفه هؤلاء الهمج من آثار — وسرعان ما ظهرت نتائج هذه النهضة القومية الجديدة فى تكوين جيش مصرى قوى يشتعل حماسة للقضية المصرية،

(١) ه . ج . ولز ص ٦٤ من كتابه : "A Short History of the World."

استخدمت فيه الخيول وعربات الحرب فى قطع فيافى « سينا » و « فلسطين » حتى وادى الفرات — وتبلغ بعد ذلك بزمن يسير جيوشُ مصر أرضَ الجزيرة ، ويتألق فى سماء العالم المعروف نجم ملوك الدولة الوسطى ، وتقرع الاسماعَ أسماءُ « طوطميس » و « أمينوفيس» و « حتاسو » ثم «رمسيس» ، ويدخل العالم على إثر ذلك فى فترة تقرب من الالف سنة ، كلها صراع وحروب بين المدنيتين العريقتين فى مصر وأرض الجزيرة ، هو فى عرف الحياة تنازع بقاء ، الغلبة فيه للقوى . وتظهر فى الأفق السياسى أسماء ملوك أخَر من « نينوى » و «أشور» ، وتتقارع سيوفهم مع سيوف الفراعنة ، ويطمع الطامعون فى امتلاك مصر بعد انقضاء عصر الفتوة فيها بانقضاء الأسرتين السابعة عشرة والتاسعة عشرة ـ ويقود « سرجون الثانى » بن « سنّاخريب » جيشاً يفتك به الطاعون قبل أن يدرك مصر ، ثم ينجح حفيده « آشوربانيبال » فيما فشل فيه سلفه ، ويستولى على مصر حوالى ٦٧٠ ق م ، ويُديل منها سلطان الأثيوبيين — ويَشْهد العـــالم خطراً جديداً بقيام العنصر الآرى وتهديده البلاد المتمدينة منطلقاً من عقاله فيما جاور « بحر قزوين » من شماله الشرقى وشماله الغربى ؛ ويسمع العالم لأول مرة أسماء « الميدين » و « الفرس » و « السّيت » و« الأرمن » و « والسمـريين » و « الفريجيين » و «الهلّـينيين» ويقتصر شرور المتبربرين فى شرق العـالم المتمدين على تهديد حدوده — أما فى غربه فيتمكنون من الاستيلاء على المدن العامرة وطرد سكان بحر ايجه ، والقضاء على ما كان لهم من مدنية — ويفر «الأيجيون» تحت تأثير ضغط هؤلاء إلى « دلتا مصر » يبتغون فيها أمنا ، فتضيق بهم وتجليهم عنها ، وينزل أقوام من سكان آسيا الصغرى إلى البحر هرباً من غارات الآريين ،

ويلتمسون فى غابات إيطاليا الوسطى وطناً لهم ؛ وهؤلاء هم « الاتروريون » أساتذة الايطاليين فى المدنية ، وينتجع فريق من أولئك الأسيويين سواحل البحر الأبيض الشرقى ، فيكون من نسلهم « الفلسطينيون » .

وتسلم مصر من هذه الهجمات الآرية كما تسلم منها أرض الجزيرة إجمالاً حتى عام ٦٠٠ ق.م ، ولكن البرابرة ظلوا يهددون الحضارة التى ازدهرت فى أرض الهلال الخصب بالزوال ، وتركد ريح المدنية فترة من الزمن ، وتبقى على الرغم من ذلك جذوتها كامنة فى معقل التحضر — فى « مصر وأرض الجزيرة » على السواء . وتدخل « الأهرام » فى ألفها الثالث ، وتُزار مصر من أجلها كما تزار اليوم ، ويُعجب الزائر بروعة البناء وضخامته ، وبالقوة التى استطاعت أن تعليه إلى هذا الحد من الارتفاع ، كما تأخذه روائع الفن المعمارى الذى أبدعه بناءو الدولة الوسطى فى الكرنك والأقصر وغيرهما من بلاد مصر — ولا تعوزنا الوثائق التاريخية عن زهاء الحضارة المصرية فى هذه الحقبة من الزمن الذى عصفت فيه غزوات المتبربرين بالعالم المعروف فمحت من معالمة ما محت ، وصمد على الزمن ورسخ قدم المصريين القوى الذى خطا بالمدنية أول خطواتها الموفقة ، ثم درج بها فى سبيل النهوض والاكتمال .

ولقد يقال إن مصر خضعت للأشوريين حين نزلت جنود بانيبال أرض مصر السفلى ، ولكن النخوة المصرية التى رفضت بالازدراء والاحتقار الشديدين حكم الرعاة من الهكسوس ، أبت هذه المرة أيضاً إباء الشمم أن تستكين أو تلين لها قناة ، فسرعان ما خلعت البلاد عن نفسها سلطان بانيبال بزعامة الملكين القويين « بسماتيك الأول » و « نخاو الثانى » من ملوك

الدولة الحديثة اللذين ردا الأشوريين على أعقابهم؛ وتمكن ثانيهما من أن يعيد إلى مصر شيئاً غير قليل من سيادتها الخارجية. وتضافرت على القضاء على الأشوريين جهود المصريين من الغرب والميديين من الشرق، وسلِمَت مصر مرة ثانية من النفوذ الأجنبي، ذلك النفوذ الذى خلقت تمقته أشد المقت، وترفضه فى أباء وأنفة.

وكتب للشعوب الآرية أن تسود الأمم السامية بعد نضال وتاريخ طويلين، وجلس على عرش فارس منهم أباطرة حكموا ملكاً متباعد الأطراف، شمل كلديا وشمال الجزيرة وآسيا الصغرى وسوريا وبلغ مصر غرباً وحدود الهند شرقاً. ودخل «قمبيز» مصر فى حكم «بسماتيك الثالث» بن «أحمس الثانى» بمساعدة أحد الخونة من الأغريق المقيمين فى البلاد، واستولى على «منف» عام ٥٢٥ ق. م. وانتهى بذلك الغزو حكمُ الأسرةِ السادسة والعشرين الفرعونية، ولكن عوامل الطبيعة الغاضبة تضافرت هذه المرة مع كراهية المصريين لهذا الغزو الآرى، فعملت بالاشتراك مع روح القومية على أحباط حملات «قمبيز» إلى قرطاجنة وسيوة والنوبة، وجن جنون الملك الفارسى من اجتماع كلمة المصريين عليه، فطغى وبغى، ونكل بالمصريين، وعبث بمعبوداتهم وأهان رجال الدين، وجرح العزة القومية فى أعلى صورها — وهكذا كان دخول «قمبيز» مصر بفعل الخيانة الدنيئة — أكثر مما كان بفعل الاستسلام — والحق أن المصريين ما كانوا ليسلموا القياد لهذا الفاتح الجديد لولا ما كان من دهائه وسعة حيلته، فقد جعل فى مقدمة جيشه آلافاً من القطط والكلاب، وكان المصريون يقدسونها، فلم يسددوا إليها سهماً، مخافة سخط الآلهة وغضبها، وهكذا منعهم تفانيهم فى

احترام العقيدة عن القتال ، ودعاهم إلى التسليم المؤقت — فلم يدخل الفرس أرض مصر بأرادة أحد ، ولم يقبل المصريون حكمهم راضين ؛ وعلى النقيض مما فعل « قمبيز » انتهج « دارا » الأول سياسة اللين ، فاحترم عقائد المصريين بقدر ما أساء سلفه إليها، وأكثر من أعمال التعمير بقدر ما خرب قمبيز ، ولكن الشعور الوطنى المصرى كان رغم ذلك يغلى كالمرجل غير منخدع بالمظهر الكاذب عن حقيقة الحال ، وما لبث « خُباش » أحد الأمراء الوطنيين أن طرد الفرس من مصر وأجلاهم عنها عام ٤٨٦ قبل الميلاد .

* * *

ولكن النضال على السيادة ظل حيناً من الدهر مستحكم الأواصر بين الأمراء الوطنيين يهددهم الغزو الفارسى من الخارج ، واستطاع « اجزركسيس » الأول ملك الفرس أن يمتلك البلاد مدة لم يطل أمدها ، حيث تمكن « أمنروت » المعروف باسم « أمرتيوس » من مواطنى « سايس » من طرد الفرس من البلاد عام ٤٠٥ ق . م . وعاد الفرس إلى دخول مصر للمرة الثالثة فى حكم الأسرة الفرعونية المتممة للثلاثين ، عام ٣٤٠ قبل الميلاد ، ولكن حكمهم بها لم يدم طويلا إذ تمكن الاسكندر المقدونى فى صراعه مع الدولة الفارسية من أن يقضى على سلطان «دارا» الثالث عام ٣٣٣ قبل الميلاد ، ودخل مصر بمعونة بعض اليهود . والظاهر أن المصريين الذين أعياهم النضال مع الفرس حقبة طويلة من الزمن — ولم يكونوا قد أفاقوا بعد من وعثاء الحرب ومتاعب الجهاد المتواصل ، لم يقاوموا الفتح المقدونى مقاومة تذكر — ودخلت مصر فى حيازة الاسكندر ، وصانع هذا أهلَ مصر ، وقَرُب من نفوسهم المجهدة ، وكانت وسيلته فى ذلك استمالة

رجال الدين ، وكانوا مفتاح هذه البلاد ، وبغير معونتهم لم يكن من اليسير خضوع مصر لحكم الأجنبي . ويلوح أن البلاد التى كان قد فتت من قوتها طغيان الحكم الفارسى وجبروته ، قبلت حكم العاهل المقدونى خلاصاً من حال سيء إلى حال قد يكون فيها بعض الخير . وكانت الحضارة الهلينية التى حملها الاسكندر أينما ذهب فى فتوحاته فتية ، وكانت سياسة الفاتح المقدونى مزدوجة الغرض ، تتلخص فى أن يغزو العالم المعروف فيخضعه إخضاعا سياسيا ، ثم يُغرقُه بالحضارة الهلينية التىآمن الاسكندر بتفوقها علىماسواها من الحضارات ؛ ويرجح أن تكون الحضارة المصرية المكتهلة قد تأثرت بهذا التيار الجديد ، ورضخت لناموس البقاء ، ورغبت فى أن تأخذ من هذه المدنية الناشئة ما قد يكون فيها من عناصر القوة والحياة .

ووجد المصريون أنفسهم أمام قوة حربية لا سبيل إلى ردها ، ذلك فضلا عن أنه كانت بالبلاد جاليات اغريقية تسكن الدلتا ، وفى الجيش جنود مرتزقة من الأغارقة ، فلم يكن من العسير والحال كذلك أن تستولى جنود الاسكندر على دلتا مصر .

٭ ٭ ٭

ولننظر الآن إلى مدي ما أثر الفرس فى حياة المصريين ، وما خلفوا بها من آثار — فاننا واجدون انهم جلوا عنها دون أن يتركوا بها أثراً يذكر ، فى حين أثرت الحضارة المصرية فيهم أثرها المنتظر ، فتركت فى عمارتهم آثاراً ملحوظة مانزال نراها فى مبانى « برسبوليس » عاصمة الفرس ، حيث أقيمت الأبواب الكبرى لمداخل ساحة برسبوليس على النمط المصرى ، ولاسيما « عتب الباب » الذى تأثر «بالأعتاب» المصرية تأثراً واضحاً ، وكذلك بعض

التفاصيل المعمارية التى تشاهد فى الأعمدة الفارسية التى أخذت من الأعمدة المصرية حلياتها وزخارفها النباتية والحيوانية . وسواء أكان التأثير المصرى قد أدرك العمارة الفارسية بطريق مباشر ، أى بسبب استقرار الفرس فى مصر فترة من الزمن ، أو بطريق غير مباشر ، بمعنى أنه انتقل إلى بلاد فارس بطريق الأشوريين والكلدانيين الذين تأثروا بدورهم بالفن المصرى المعمارى ، فالنتيجة واحدة بالنسبة لنا ، وهى دالة من غير كبير عناء ، على أن مصر ظلت رغم أحداث السياسة ، قوة مؤثرة فى ميادين الفكر والفن ، كما ظلت مستشعرة سيادتها المعنوية على شعوب الشرق الأدنى ، رغم خضوعها فترات قصيرة لهذه القوة السياسية أو تلك .

* * *

وقد أدت اليقظة الفكرية التى ظل المصريون يحسونها ويعتزون بها إلى بقاء الشعور القومى حيًّا فيهم . . ومن الأمور التى لاتحتاج إلى تدليل كبير ، ان شعور القومية ملازم للرقى الفكرى ، وان الجهل يقتل روح القومية ويمحو كل اعتزاز بالجنس والحضارة والوطن — والمعروف أن الحركة الفكرية المصرية ظلت قائمة فى أشد عصور مصر اكفهراراً باحداث السياسة — حقاً لقد شهدت البلاد فى أخريات أيام الفراعنة شيئاً من الهوان السياسى لم يتطرق أثره السيء إلى معقل الثقافة المصرية البحتة فى « جامعة أون أو عين شمس » تلك الجامعة التى ظلت تشع منها معرفة مصرية صميمة ، ناهضت المعارف الهلينية التى انتقلت إلى الاسكندرية وتركزت فيها .

فعلام يدل ذلك — ؟ ان دل ذلك على شىء ، فدلالته كبيرة على أن المصريين لم يسلموا زمام الفكر للأغارقة حين أسلموا زمام السياسة — وكيف يسلم المصريون زمام الفكر للأغارقة ، وهم أصل ما انتهى إلى هؤلاء من علم

ومعرفة ! — ولا يفتأ التاريخ يروى أن نفراً من زعماء الفكر اليونانى نهل من جامعة «أون» علماً وعرفاناً . وسواء صح أن يكون أفلاطون ، قد درس فى مدينة الشمس على أساتذتها من الكهان ثلاثة عشر عاماً أم لم يصح ، فذلك معتقد المصريين على كل حال ، ذلك فضلا عما يكاد التاريخ يجزم به من استفادة المشرع اليونانى « صولون » أصول طرائقه فى التشريع فى جامعة عين شمس .

٭ ٭ ٭

وكان موقف المصريين من الاستعمار المقدونى والثقافة الهلينية والفن الهلينى موقفاً تجلت فيه العصبية المصرية إلى أقصى درجة ، فلم تجتمع قلوب المصريين على حب الغاصب المقدونى ، كما لم تجتمع قلوبهم على حب من سبقه من الغاصبين سواء بسواء ، ولم تسغ نفوسهم العلم اليونانى الاسكندرى فى الوقت الذى كان لهم فيه علم مصرى بحت ، يعيه الكهان ويلقنونه تلاميذهم فى «أون» بمعزل عن أغريق الاسكندرية ونقراتس وغيرهما من بقاع الدلتا ، ولا استطاع الفن اليونانى أن يؤثر على فنون البلاد الأصلية ، بل على العكس من ذلك لم يجد فنُّ اليونان فى هذا البلد حياة إلا بانتحاله بعض شخصية الفن المصرى ، وبالمثل لم يقدَّر للفن الرومانى أن يحيا فى مصر بغير اللقاح المصرى . فهذه معابد فيلة ودندرة وادفو ما تزال شاهدة على تأثير الفن المصرى فى فنون اليونان والرومان . وتفسير هذه الظاهرة الفنية يلتمس فى قوة الفن المصرى وطبيعته الغازية أكثر مما يلتمس فى اصطناع البطالسة والرومان فنون البلاد تقربا من أهلها وزلفى ، فلم يكن لهؤلاء وهؤلاء بد من الخضوع لسيطرة البلاد الروحية عليهم ، وسواء جاز على المصريين اصطناع هؤلاء الأجانب للقومية المصرية أو لم يجز ، ومعظم الظن أنه لم يرقهم ولم يلههم عن حقيقة الأمر ، فان القومية المصرية فعلت

فعلها القوى الصامت — برفضها ثقافة الفاتحين واعتزازها بثقافتها الخاصة ، وبتأثيرها الواضح فى فنون اليونان ، ذلك التأثير الذى يتجلى فى الطراز المختلط الأصول الذى عرف بطراز العمارة البطليموسى .

* * *

أبت المبادىء الأخلاقية المصرية بتأثير العقيدة الدينية أن يقبل المصريون أى نوع من أنواع المذلة السياسية طواعية واختيارا ، فقد كانوا يرون فى المذلة السياسية هوانا ليس بعده هوان ، فان يكونوا قد أسلموا القياد لحكم الاسكندر ، فليس معنى ذلك أنهم نزلوا عن آرائهم القومية أو تخلوا عن أفكارهم السامية ومثلهم العليا فى الدين والوطن ، وانما كان ذلك استسلاما لظروف السياسة العالمية موقوتا ليس غير ، وتخلصا من السخرة التى فرضها عليهم الحكم الفارسى ، وشغفا بتنسم الحرية التى فقدوها بسببه حينا من الدهر ، فلم تقبل الوطنية المصرية الخضوع للحاكم الجديد إلا خلاصا من حال إلى حال لعلها تكون خيرا من الأولى .

وحكم البطالسة مصر بعد الاسكندر ، فلم يستقم لهم الحكم إلا بعد أن تشبهوا بالفراعنة فى مظهرهم وطرائق معيشتهم . وقد أنفق هؤلاء جهدا كبيرا فى سبيل الاندماج بالمصريين ، لحال دون ذلك عاملان أساسيان : أحدهما ، شعور السيادة الذى ظل يلازم العنصر الأغريقى الفاتح فباعد بينه وبين المصريين ، وثانيهما ، ما فطر عليه المصريون من ذكاء استطاعوا به أن يدركوا أفاعيل البطالسة واصطناعهم القومية المصرية — فعلى الرغم من ازدهار الحياة العامة فى مصر فى أيامهم ، وقيام جامعة الاسكندرية ، واتخاذهم الفن المصري المعماري لبناء معابدهم ، واحترامهم للعقائد الدينية المصرية ، وابقائهم على الثقافة المصرية البحتة خارج الاسكندرية — على الرغم من

ذلك كله ، نفر المصريون منهم ، وعدُّوهم دخلاء مغتصبين لا يجوز الخضوع لهم أو الاذعان . وانتهى حكم البطالسة بما فيه من خير وشر ، وقضى بذبح كليوباطرة واستهتارها وتقلبها فى أحضان السياسة الرومانية بدخول الرومان مصر ، وحكم هؤلاء الرومان البلاد حكما سياسيا خشنا ، لا أثر فيه يذكر لثقافة أو علم ، فلا نكاد نعلم خلال القرنين الأولين من الميلاد شيئا عن حركة مثمرة فى ناحية من نواحى النشاط الفكرى ، رغم ما عرف عن بعض حكام الرومان فى مصر من تشبه بعواهل البطالسة فى حمايتهم للعلم والأدب . والحق أن نظم الامبراطورية الحربية لم تكن تسمح بحرية فكرية قد يكون من شأنها عرقلة النظم التى وضعت وأحكمت فى روما لسياسة الامبراطورية وسلامة بنيانها . وعرف عن هذا العصر الرومانى كثير من ألوان العسف والبطش بقصد صيانة كيان الدولة ، فأخمدت فيه الأنفاس ، وعذبت الأبدان واستلبت الحريات ، وبلغ الظلم المدى ، ووقع فى النفوس موقعاً سيئاً ، وغدت مصر بقرة حلوبا يرام حلبها ولا يرام غذاؤها !

* * *

وقد يكون من المفيد فى بحثنا هذا أن نتتبع التاريخ السياسى للامبراطورية الرومانية تتبعا موجزا نخلص منه إلى علاقة « مصر » بالامبراطورية ، ونصور الحالة العامة فيها تصويراً يساعدنا على فهم الأحداث الخطيرة التى امتازت بها هذه الحقبة من الزمن ، والتى كان من شأنها أن نضجت فى الشعب المصرى شعوراً قومياً متأججاً فى أواخر القرن السادس الميلادى وأوائل القرن السابع — هو نتيجة لجهاد قرون ستة ، أبلى فيها المصريون بلاء حسنا أكدوا به ما عرف عنهم من الآباء ورفض الضيم وطول الأناة والصبر على المكاره والانتصار آخر الأمر — والفوز بالحرية المسلوبة .

٢ — محنـــة وجلاد

الرومان يحكمون الامبراطورية حكماً حربياً — تختفى منذ الحقات الأخيرة من القرن الثالث الميلادى مبادىء الديموقراطية — ارادة الأمبراطور قانون فوق القانون — سيادة الآراء الشرقية على البـــلاط الرومانى — انقسام الأمبراطورية إلى شرقية وغربية — بذخ الدولة الشرقية واسرافها بتأثير المبادىء الفارسية — استنزاف الأموال وفقر الأهاين فى كل مكان ولا سيما مصر — الكفاف كل حظ المواطنين المصريين من هذه الحياة — السياسة الرومانية تؤدى إلى قلة اكتراث الناس بمباشرة أعمالهم الخاصة — عدم الاستقرار الناشيء عن ذلك وأثره فى إضعاف الصـلة بين القوم والوطن — انعدام وجود العناصر النشطة التى تساعد فى ادارة الدولة .

خرجت الدولة الرومانية من القرن الثالث الميلادي دولة انتصر فيها سلطان الأمبراطور الشخصى على المبادىء الديموقراطية التى كانت ممثلة فى « السناتو الايطالى » . وقد أراد لها دقلديانوس (٢٨٤/٣٠٥ ب.م) أن تكون كذلك ، فجرد مجلس السناتو من سلطته ، وأحاله نوعاً من المجالس البلدية ، له الاشراف على روما ، يدير دفة الأمور فيه رجال طاعنون فى السن — وبهذا طويت صفحة الحكم الديموقراطى الرومانى ، وغدا الأمبراطور الحاكمَ الفرد ، واستبد بأمور الدولة لا يحد من سلطانه أحد ، وأصبحت الأداة الحكومية حربية فى جملتها ، شرقية المظهر والروح والكيان ، واتخذ الأمبراطور الرومانى لنفسه جميع مظاهر السلطان الشرقى ، فلبس الملابس الموشاة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، واعتلى العرش الرفيع وأصبح دون الوصول إلى أعتابه الانحناء وتقبيل الرغام .

وثابت أن ذلك كان بتأثير البلاط الفارسى(١) فعنه نقل القواد الكثير

(١) برستد ـ الأزمنة القديمة ص ٦٧٨ وما بعدها Breasted, Ancient Times.

من تقاليد الشرق وعاداته وعقائده . ولا غرو ، فقد انتشرت فى أنحاء العالم الرومانى عبادة الاله الفارسى «مثراس» وشهد العالم فى تلك الآونة علامات اندماج بين الشرق والغرب تذكر بسياسة الاسكندر الأكبر قبل هذا التاريخ بقرون ستة أو تزيد ، سياسة أدماج الغرب فى الشرق أو سياسة التزاوج بينهما . وسما شخص الأمبراطور ، وارتفع إلى مرتبة قدسية ونعت باسم « الشمس التى لا تقهر » وأصبح الاعتراف بصفته الدينية فرضاً لازماً على كل مواطنى الأمبراطورية لا سبيل إلى نكرانه ، الويل كل الويل لمن جحد ذلك أو غض من شأنه ، وبهذا الروح الاستبدادى الذى ينسبه « برستد » إلى الشرق ، قضى على ما كان فى العالم من ديموقراطية الحكم ، وهى ذلك التراث النفيس الذى جاهد الانسان من أجله آماداً طويلة وأنفق فى سبيل الحصول عليه أعز ما ملك ، وفى سبيله عذبت أجساد وزهقت نفوس ، — قضى عليه انحياز الأمبراطور نحو الشرق بتأثير العداوة المريرة التى كانت بين الفرس والروم أول الأمر ، تلك العداوة التى قضت بأن يهجر الأباطرة « روما » وأن ينتجعوا « نيقية » فى آسيا الصغرى ، والتى كان من آثارها المباشرة سيادة كثير من الآراء الفارسية وسيطرتها على عقول الروم بحكم الاحتكاك والتلاحم .

ولما اضطر الامبراطور إلى افراغ همه فى الفرس ، واتجه لذلك نحو الشرق وركز سياسته فيه ، عين من قبلِه حاكماً يرعى شئون الأمبراطورية فى الغرب جرياً على تقاليد القنصلية الرومانية التى كانت تجيز هذا وتقره . وسكن ذلك الحاكم « ميلان » فى وادى البو ، وكانت النتيجة المحتومة سواء أرادها دقلديانوس أم لم يردها ، انقسام الأمبراطورية بذلك إلى شرقية وغربية .

وضع دقلديانوس قبل موته نظاماً لحكم الأمبراطورية قرر فيه أن يكون

لها أمبراطوران يليهما فى السلطة قيصران ، يتولى كل منهما سلطة العاهل الأمبراطورى لمجرد موته ، وقد تضمن هذا النظام العقيم فيما تضمن انقسام الأمبراطورية إلى أربعة أطراف ، يتولى الاشراف العملى على كل منها عامل أو حاكم ، وانحلت الأمبراطورية فيما دون هذه الأقسام الأربعة الكبرى إلى ولايات تقرب من المائة ، يحكم كل منها وال يساعده عدد من الموظفين . وإلى جانب ذلك كان النظام الاقتصادى لهذه الدولة بالغاً من الفساد درجة قصوى ، فكان لزاماً على بلاد الأمبراطورية أن تمد الحكومة والجيش بما يلزمهما من مال ، فضلا عما كان يتطلبه البلاط الأمبراطورى من البذخ والاسراف الشديدين . ومما كان يدعو إلى البذل وبسط اليد فى غير طائل ، قيامُ أربعة أباطرة ، هم عواهل الدولة فيما آلت اليه الحال نتيجةً للنظام العقيم الذى وضع دقلديانوس أساسه قبل موته ، لكلٍ بلاطه الخاص ؛ سرت بينهم عدوى التنافس فى الأبهة وروعة السلطان ، وكانت العاهلية الأولى ، عاهليةَ « الشرق » تضم مصر وآسيا الصغرى وجزءاً من أوربا يشرف على البحر الأسود وبحر مرمرة — وعاهلية « الليركوم » وتضم دول البلقان ، وعاهلية « ايطاليا » وتضم ايطاليا والنمسا وشمال افريقية (طرابلس وتونس والجزائر) ثم عاهلية « الغال » وتضم فرنسا وانجلترا واسبانيا والمغرب الاسبانى — دعنا نتمثل ما كان يتطلبه البلاط الأمبراطورى الرومانى من المال ليجارى الأبهة الشرقية المسرفة التى اتخذها منذ مال محور السياسة الرومانية نحو الشرق، وما كان يجب أن يتوفر لبلاط كل من العواهل الآخرين من مظاهر الترف والبذخ — ثم ما كان يجب أن توفره الدولة لمواطنيها وهم عديد يفوق الحصر من « الخبز والأُدم » ، نقول الخبز والأدم — لأن الكفاف كان كل حظ المواطنين من هذه الحياة ، فلم يكن من

برنامج الدولة السهر على سعادة الأهلين أو جلب الرفاهية لهم ، فذلك كان أبعد ما يكون عن أن يخطر ببال الامبراطور أو الحاكم أو عامله . وكان الأمر على النقيض من ذلك لسوء حظ الأهلين ، فبدلاً من أن تخفف الضريبة عن هذا الجمهور الفقير المعدم ، ارتفعت قيمتها من وقت إلى آخر حتى غدت عبئاً على كاهل الأهلين . وتنوعت الضريبة وفرضت على أنواع الملكية المختلفة ولم ينج منها من مقتنيات الأفراد إلا القليل النادر .

* * *

كان البطالسة يفرضون الضرائب على جمهور المصريين بقصد التمكن من الانفاق على الاداة الحكومية البطليموسية والبلاط البطليموسى ، وكان دخلهم من هذا السبيل ينفق كله فى مصر ، ولكن ما كان يجمعه الرومان من الضرائب لم يكن ليبقى فى مصر ، وانما كان يرسل إلى روما ثم إلى بيزنطة من بعدها ، دون أن يسترد المصريون فى مقابله شيئاً . وكان من سياسية البطالسة حماية بعض المنتجات الأهلية ، ولذلك فرضوا الرسوم الجمركية على الواردات التى توجد لها نظائر فى داخلية البلاد ، على خلاف ما كان الحال فى العهد الرومانى الذى كان هم الحكومة فيه استغلال البلاد إلى أبعد حدود الاستغلال ، حيث رفعت القيود الجمركية على الواردات ، وهكذا بدل الرومان نظام الضرائب البطليموسى الذى روعيت فيه مصلحة البلاد ووضعت فى الاعتبار الأول ، وحولوه إلى نظام غايته استنزاف الثروة الاهليه . ومما يبعث على الأسف أن هؤلاء الرومان كانوا يشتطون فى جمع الضرائب كلما ساءت حالة البلاد الاقتصادية . وكان مقدار ما يجب أن يجبى من مصر كل عام لينصب فى الخزائن الامبراطورية أمرا موكولا لرأى الامبراطور ، يقضى فيه قضاءه سنة بسنة — فكان يحدد مقدار الضرائب ويضع الخطة التى تجبى بها ، وكانت أوامره

فى هذا الصدد ترسل إلى عامله فى مصر ومن ثم تنفذ إلى من هو دون هذا العامل أو الحاكم مرتبة (ستراتوجوى) ثم إلى الملتزمين (سيتولوجوى) فى المدن والقرى والدساكر ، وينطلق على الفور جيش جامعى الضرائب يحصلها فى غير هوادة . وكانت أهم هذه الضرائب ضريبة القمح تجمع من الفلاحين (عينية) ، وكانت ترسل إلى روما لاطعامها ، وكان لها سجلات فى القرى يدون بها مقدار ما يجب أن يؤديه كل زارع ، وقد روعى فى هذه الضريبة بعض العدل ، فخففت عمن لم يصل الفيضان العميم أراضيهم ، ولكن الحكومة لم تغفل عمن قصروا فى دفع الضريبة بسبب انخفاض منسوب المياه ، بل كانت تعوض نفسها عن ذلك فى العام التالى ، وكانت لها رقابة دقيقة على الأراضى مخافة أن يغرقها الأهلون أو يجففوها هربا من زراعتها .

ويصف ملن(١) حالة البلاد فى العصر الرومانى وصفا نلمس فيه بشاعة الحكم وانحرافها عن سنن العدالة وجنوحها إلى جانب القسوة والظلم ، فكانت الدولة لا تعرف لمصر حقوقاً عليها وانما تعرف لها واجبا حتم أداؤه تؤديه البلاد راضية أو كارهة — ذلك هو تموين الدولة ومدها بما يلزمها من القوت . وهكذا كانت حكومة بيزنطة لا تنظر إلى مصر الا أنها اهراء واسعة مليئة بالحب ، تنفذ منها ضريبة القمح السنوية التى نص عليها قانون جستنيان فيما نص من التزامات . وتجلت سياسة الجور الاقتصادى ، فيما عدا ضريبة القمح العينية الكبرى هذه ، فى فرض الضرائب فرضاً شاملا على كل شىء تفه أمره أو عظم ، حتى لم يكد ينج منها مواطن من مواطنى الدولة مهما بلغت به الفاقة !!

---

(١) ملن J. G. Milne, A History of Egypt under the Roman Rule.

وكان لهذه الطريقة فى فرض الضريبة أثره فى نفوس الأهلين ، فقد نفروا من الروم ومن سياستهم الاقتصادية الجائرة التى دلت على قصور ظاهر فى التشريع ، فأعطت للمواطنين سلاحا يطعنون به الدولة فى صميمها ، إذ مكنتهم من الاطلاع على مفاسد هذا الحكم ، وأدراك عيوبه ، وأتاحت لهم فرصة للتململ منه والضيق به .

ولم يكن هذا النظام الاقتصادى الفاسد سبب النفور الوحيد بين الحاكم والمحكوم ، بل لقد كانت هناك فوارق كثيرة باعدت بين المصريين وبين حكامهم من الرومان ، وجعلت من العسير بقاء الحال على ماكانت عليه ، ومكنت المصريين الوطنيين من الخلاص جملة حينما لاحت لهم الفرصة المناسبة.

وكان الملتزمون يجمعون ضريبة القمح فى أهراء واسعة ، ويكلفون أصحاب الأبل والحمير أن ينقلوا إلى المراكب الراسية فى النيل أو القنوات القريبة ما تجمّع من القمح على ظهور دوابهم ، وكان إيصال الحبوب إلى الاسكندرية موكولا إلى طائفة من متعهدى النقل ، عليهم أن يسلموها إلى موظفى الأهراء الامبراطورية فى «نيابوليس» ومن ثم تصدّر فى السفن إلى روما . وكانت نفقات النقل من الأهراء القروية إلى نيابوليس تلقى على كواهل السلطات الملتزمة التى أرسلت الضريبة ، ومن ثم نستطيع أن نفهم أنها كانت لا بد راجعة على الفلاح المسكين فى النهاية .

أما الأراضى التى لم تكن تزرع قمحاً ، كأن تزرع ثماراً أخرى كالفاكهة أو الخضر أو الكروم أو الزيتون أو التين ، فكانت تدفع ضريبتها نقداً ، ويقوم على جباية هذه الضرائب ومنها ضريبة القمح نفر يقال لهم «البراكتورس».

ومن أنواع الضرائب ضريبة فرضت على الناس فى مقابل اعفائهم من

السخرة فى كرى الترع وتعبيد الطرق وتقويم الجسور .

وثبت من العثور على بعض القصاصات(١) أنه كانت تدفع ضريبة على الأملاك الخاصة وأهمها المنازل ، وفرضت الضرائب على الحيوانات المنزلية ، وتنوعت باختلاف أنواع الحيوان وأهمها الضريبة على الخنازير وعلى الأغنام والجمال وعلى الثيران والماعز والحمير والخيل .

وفرضت الضرائب أيضاً شهرية على التجار وأصحاب المهن ، وتنوعت بتنوع المتاجر ، فكانت ضريبة الزيت غير ضريبة الروائح غير ضريبة الخبز غير ضريبة الصباغة غير ضريبة الجعة غير ضريبة النسج الخ ... وفوق هذه الضرائب المفروضة على التجارة والحرف اختصت بعض البلاد بضرائب مضاعفة لشهرتها بانتاج صنف معين من المنتجات الزراعية أو الصناعية .

واعطى بعض الافراد حق احتكار الصناعات والمتاجر فى بلد معين لمدة من الزمن نظير دفع مبلغ محدود من المال لخزينة الدولة — بمعنى ان ذلك المحتكر (وهو يشبه الملتزم فى الأرض الزراعية) كان يتقاضى أتاوة من الصناع أو التجار كل عام ، فى نظير ما يقوم بدفعه عنهم من المال إلى خزينة الدولة .

ومن أهم الضرائب ضريبة الرءوس ، واختلفت قيمة هذه الضريبة من بلد إلى أخر من بلاد القطر ، بل اختلفت فى البلد الواحد ، وخفضت على بعض ذوى الامتياز ، ووقع العبء الأكبر من هذه الضريبة على الوطنيين . وممن تمتعوا بخفة هذه الضريبة خفة تشبه العدم ، سكان الاسكندرية من العناصر الأجنبية . واعتادت الحكومه أن تحصى السكان كل أربع عشرة سنة لضبط العمل .

---

(١) عثر فى الفيوم على وثائق تثبت وجود هذه الضريبة

ومن الضرائب أيضاً ضريبة « التاج » ، وكان أصلها فى العصر البلطليموسى هدية تقدمها بعض الطبقات الارستقراطيه للملك فى مناسبة معينة ، فلم تلبث أن تحولت إلى ضريبة واجبة الأداء تخفف منها الارستقراط، وألقوا عبئها على الاهلين (١) . وتشبه الضريبة السابقة من بعض الوجوه ضريبة « تماثيل الامبراطور » وهى ضريبة كانت هينة بالنسبة لغيرها من الضرائب — ومثلها ضريبة لبناء « معابد الامبراطور »

وكان تموين الفرق الحربية الامبراطورية ملق على كاهل الفلاح المصرى إلى جانب احتياجات الادارة الحكومية المختلفة التى كانت تؤخذ نقداً أو عينا .

واختفت النقود من التداول تقريباً ، وكثر ادعاء الفقر والتظاهر بالعجز عن تأدية الضرائب لفداحتها ، ولسنا فى حاجة إلى التدليل على العجز عن سداد هذه الأنواع المختلفة من الضرائب ، لأن ذلك غنى عن البيان ، وان قلنا انه كان هناك كثير من ادعاء الفقر والتظاهر بالعجز عن اداء الضريبة ، فانما نستثنى من ذلك قلة من المواطنين كانت لاتزال تملك عقاراً على الطريقة الاقطاعية المعروفة . . . وهكذا كانت الضرائب فى ذلك العصر تؤدى عينيه من خراج الارض ، وسقطت بذلك الامبراطورية الرومانية إلى دزك سحيق من الاسفاف بقبولها هذه الضرائب «عينية» — إذ عادت بذلك إلى أشد الطرق بداوة فى جباية الضرائب . والتزم عدد من الملاك جمع الضرائب — فان قصرت دون أدائها موارد الأهلين ، كان عليهم أن يسدوا العجز من مالهم الخاص ، فان لم يتيسر ، فمن انتاجهم الخاص . وفى ذلك من الجور والظلم مافيه بالنسبة لمواطنى الأمبراطورية ولجامعى الضرائب على السواء .

---

(١) ملن — تاريخ مصر تحت الحكم الرومانى ص ١٥٨

وفى ظل هذا النظام الجائر آثر كثير من الناس الفرار من أراضيهم ، وفضلوا التسول وحياة السلب والنهب ، وفقدت الأمبراطورية الطبقة الزارعة التى هى عماد الدولة فى الحصول على الأموال المتدفقة فى خزائنها ، وحاول دِقلديان جهده أن يربط الزارع بأرضه ، وأن يبقى الطبقة الوسطى فى مزاولة أعمالها ، بسن القوانين الصـــارمة مخافة أن تفسد الحياة العامة ، فيترتب على فسادها انهيار كيان النظام الاقتصادى الرومانى ، وتفقد الدولة بذلك أهم مقومات حياتها .

ومن السهل فى نظام كهذا ، أن نتصور أن الشدة والقسوة كانا شرطين أساسيين لحفظه ، فلم يكن من اليسير أن يتخلى الفرد عن أعزّ ما يملك — وهو القوت الذى يزيد بعض الشىء عن الكفاف — إلا بسبب العسف ووسائل الاكراه ، إذ أصبحت الارادة العليا ـ ارادة الأمبراطور ـ قانوناً فوق القانون ، وفقد الناس الحرية بكافة أنواعها — فقدوها فى المال وفى العقيدة وفى الذات ، واشتطت الحكومة فتحكمت فى جهود الأفراد تحكماً جائراً لمصلحة العاهل الأكبر ، وكثرت عيون الأمبراطور فى كل أنحاء البلاد ولا سيما على تجار الحبوب واللحوم والخبز ممن يتعاملون مع الجماهير ، مخافة أن يؤدى عسف الأمبراطور إلى هجرهم التجارة ، فيهلك الناس جوعاً .

ذلك وصف موجز لما كان عليه الشعب فى الحلقات الأخيرة من القرن الثالث والحلقات الأولى من القرن الرابع الميلادى ، عسف وبطش وسخرة بالغة لحقت المحكومين ، وأبهة ونعيم وترف فى جانب الحاكمين ـ عمرت البلاد أم خربت ، فما شأن الأمبراطور بعمارها أو خرابها ، ما دامت الأموال تتدفق فى خزائن الدولة ؟ ؟

٣ — يقظة وجهاد

الجهل يخيم على العالم حقبة طويلة — المسيحية كفيلة بايقاظ العقول واشعال روح الوطنية من جديد — انتصارها انتصار لروح القومية المصرية — حركة النهوض المصرية القبطية منذ القرن الثالث الميلادى — ارتباط الشرق الادنى بمصر من الوجهة السياسية منذ أقدم العصور — صدى الحركة القومية القبطية فى فى أنحائه — تمجيد الاصل المصرى — أدب قبطى وفن قبطى وروح اعتزاز بالوطن والدين — مميزات القومية المصرية — الأناة وطول الانتظار والاحتمال من مميزات الشعور المصرى .

وكان من شأن هذا النظام أن قضى على كل أمل فى ظهور أدب أو فن ، لأن الأدب والفن لا يزدهران إلا فى جو من الحرية وفى بحبوحة من الرخاء المادى ، بل لقد ذهبت آثار هذا النظام البالى إلى ما هو أبعد من ذلك سوءاً ، فقضت على مقدرة العناصر التى كان يرجى منها الخير ، والتى أنتج أسلافها للأمبراطور أدباً وفناً فيما سبق ذلك من الزمن ، كما قضت قضاءً مبرماً على كل تقدم كان مرجوا لحركة التجارة. ويكاد يكون ارتقاء دقلديانوس العرش الأمبراطورى الحد الفاصل بين المدنية القديمة ، بما عرف عنها من تقدم فكرى ورخاء مادى ، قوامه العدالة ورعاية مصالح الأفراد ، وبين هذه الحال السيئة التى غاض فيها انتاج الفكر وزال الرخاء وخنقت الحريات وهوت مصالح الأهلين إلى قرار سحيق من الاهمال والنسيان ، — كأنما كان اعتلاؤه العرش الأمبراطورى نذير هذا السوء الذى حل بالمدنية القديمة فأزال من معالمها كل شىء — إلا ما أفلت من حطامها ناجياً من ظلم ذلك الزمن وعبثه بحرية الأفراد والجماعات .

ونزلت ايطاليا فى عهد دقلديانوس إلى المرتبة الثانية من حيث الأهمية السياسية بعد أن كانت حتى ذلك الحين قصبة الدولة ومستقر النشاط السياسى الرومانى . وقد ساعدت على هبوطها عوامل مجتمعة : منها غزوات البرابرة الجرمان على حوض الدانوب الأدنى ، ونهوض الدولة الفارسية وتهديدها أطراف الأمبراطورية من شرقيها ، مما أدى إلى ضرورة اتجاه الأمبراطور صوب الشرق دفاعاً عن كيان امبراطوريته .... وظهرت فى فى البلقان قوة الجند (الليريين) ونهض من بين فصائل الجنود (الليرية) عاهل أمبراطورى لا يمت إلى روما بصلة ولا حاجة به إلى التشبث بايطاليا كمركز للأمبراطورية .

وتجلى الميل الجديد إلى الشرق على أشده فى عهد « هدريان » الذى عنى بأثينا عناية فائقة فأنفق فى تجميلها الأموال الطائلة .

وظهر على أثر موت دقلديان ، أن النظام الذى وضعه لحكم الأمبراطورية كان فاسداً شديد الفساد، إذ تنازع على العرش نفر من الطامعين فيه، وخرج قسطنطين من هذا النضال فائزاً بحكم الأمبراطورية، مؤثراً شرق الأمبراطورية على غربها . وأسس لهذا مدينة القسطنطينية ، متخذاً من مدينة « بيزنطة » الأغريقية نواة لعاصمته الجديدة . ومن هذه العاصمة حكم الأمبراطورية الرومانية حكماً قوياً موفقاً إلى حد كبير . وكان تأسيس القسطنطينية حادثاً خطيراً فى سياسة الدولة الرومانية ، بدأ به انقسامها إلى شرقية وغربية، وتفوقت به المدنية الشرقية على مدنية الغرب ، وطغى سيل الآراء الشرقية على الحكم ، وظهرت طرائق الشرقيين جلية فى حياة الروم البيزنطيين ، —

وكان من جراء هذا كله ذلك التدهور البطىء الذى أصاب صميم الدولة وسرى فى جسمها سريان السم القتال .

ولم تغن أنظمة دقلديانوس عن هذا الفساد شيئاً ، ولم يعد مواطن الدولة يشترك بشعوره وقلبه فى العمل على رخائها وصالحها ، لأن الدولة كما قدمنا لم تكن تبادله المنفعة ، وانعدم وجود العنصر النشط الذى كان يأخذ على عاتقه عظائم الأمور فى عصر الجمهورية .

* * *

ولم يقدّر للأمبراطورية وشعوبها أن تتنفس الصعداء ، فتَحيا بعض الحياة ، إلا بانتصار المسيحية ، وعلو شأنها ، فزاد على يد قسطنطين عدد الكنائس واحتاجت المسيحية إلى رجال أكفاء يسهرون على مصالحها ، وخلقت المناقشات الدينية بين رجال الكنيسة طائفة من الرجال ، امتازت بالمقدرة على تصريف الأمور ، فكان منهم قادة فكر ، مكنتهم مواهبهم الشخصية من الظهور على مسرح السياسة — بعد مسرح الدين ، فشغلوا مناصب الدولة الكبرى فى زمن عزّ فيه الكفء الذى يستطيع قياد الدولة ، بسبب ما أصابها من التدهور السياسى غداة قضى دقلديانوس على آخر شكل من أشكال الديموقراطية ، بقضائه على مجلس السناتو الايطالى .

وبهذا ارتفعت المسيحية من مجرد عقيدة دينية ، لم يكن يعتنقها إلا ضعاف القوم ، إلى نظام عتيد استطاع أن يناهض الاداة الحكومية . ولا غرو ، فقد كانت المسيحية فى ذلك العهد أشبه شىء بالرقابة المفروضة على نظام سياسى فاسد ، واجبها تقويمه واصلاحه ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

ويمكن القول اجمالا أن قوة المسيحية كعقيدة ، أتيح لها عصر من النماء والازدهار طويل لا بأس بطوله ؛ ولكنها عادت فاصطدمت بآراء الأمبراطور « جوليان » (٣٦١/٣٦٣ ب.م) الذى كان مشبعاً مثل سلفه « ماركوس أورليوس » بروح الفلسفة اليونانية والأدب اليونانى . وعانت المسيحية من جديد شيئاً من العنت غير قليل. وكان جوليان — لحسن حظ المسيحية — آخر ممثل للوثنية اليونانية ، وبموته رجعت إلى المسيحية سطوتها وعاد إلى رجالها نفوذهم فى ميدان السياسة .

ومما تجدر ملاحظته أن عودة المسيحية إلى الانتصار بموت جوليان ، أكسب الحياة العامة فى جميع أنحاء الأمبراطورية شيئاً من الاعتزاز والقوة . وكان ذلك على أظهر حالاته فى مصر ، «بلاد العقيدة» — فكانت المسيحية فى كل مكان ولا سيما فى مصر ، أكثر بلاد الأمبراطورية شعوراً بالقسر والظلم والارهاق — سبباً فى تنور الأذهان واتجاهها إلى الحقوق المهدوره طالبة ردها ، ففى ظلمات ذلك العصر ، كان النور الذى شع ضئيلا من كوى الكنائس ، وطاقات الأديرة ، عاملا قوياً فى هداية الناس وإشعارهم بحقوقهم الضائعة .

* * *

فى ظل هذا النظام الاقتصادى الجائر ، وتحت حد هذا السيف الرومانى المرهف المسلط على الرقاب ، نمت روح قومية مصرية ، دلت على حيوية ملازمة للعنصر المصرى ، تجلت فى التبرم بهذا النظام ، وعملت تدريجاً على الخلاص منه ، وئيدة جادة ، حتى قدر لها النجاح — وساعدتها عوامل سوف نتبينها رويداً رويداً .

والحق أنه منذ أواخر القرن الثالث الميلادى، بدأت تدب فى المصريين بوادرحركة قومية مناوئةلطرائق الحياة والنظم الهلينيةوالرومانية اطلاقاً[١]، اقترنت بحركة احياء للعقائد والتقاليد المصرية القديمة ، وقامت فى نفس الوقت حركات قومية مشابهة فى بلاد الشرق عامة ، ترمى إلى الغض من شأن المدنية اليونانية فى سوريا وما بين النهرين وآسيا الصغرى — يرجح أن يكون الفرس الساسانيون هم الذين أذكوا نارها فى كل مكان . وكانت مدن مصر العليا معقل هذه الحركة المعارضـــة ، والحق أنه عند ما قبل الوطنيون المصريون الديانة المسيحية ، خلقت فيهم العقيدة شعوراً بقوتهم وقيمتهم ، ولا غرو فقد اقترنت الديانة الجديدة بحركة فكرية قوية حقرت الوثنية الأغريقية كل التحقير ، وقام رجال الدين يعظون الناس باللغة المصرية بعد أن كانوا يعظونهم باليونانية ، وتزعم هذه الحركة نفر من رجال الدين الأقباط ، وأخذت الكتب الدينية تنقل من اليونانية ، لغة الدولة الرسمية ، إلى اللغة المصرية القبطية تباعاً . ولم تقف حركة المعارضة عند هذا الحد ، بل اتخذ المصريون لانفسهم فنا قبطياً ناهضوا به الفن الاغريقى الرومانى ، ولو أنه لم يخل من التأثر به على كل حال .

وكان انتصـار المسيحية على الوثنية فى حقيقة الامر انتصاراً لمصر القبطية على الحكم الرومانى ، وثورة على النظم البيزنطية ، إذ بدأ يشعر أقباط مصر بقوميتهم ، وبالدور الهام الذى يحق لهم أن يلعبوه فى شئون البلاد كورثة للفراعنة، وامتلأت نفوسهم كراهية للأغريق الذين طالما احتقروهم وغضوا من شأنهم ، وللرومان الذين طالما نكلوا بهم وساموهم ألواناً من الخسف وسوء العذاب .

(١) فكتور شابو — مصر الرومانية ص١١٢ : Victor Chapot. L'Egypte Romaine

وبلغت روح التفاخر بعراقة الاصل المصرى بين أقباط مصر أعظم شأن لها فى القرن السادس الميلادى — حين أخذ المصريون يشيعون أنهم أقدم شعوب الارض، وأن بلادهم اخترعت الكتابة والهندسة فضلا عن غيرهما من العلوم، وبعبارة أخرى أنها مهد المدنية. واعتقد الاقباط اعتقاداً جازماً، إن خطأ وإن صواباً ، انه ما من شىء عظيم الشأن فى هذا العالم ، إلا كان من عمل متحمسيهم ، وبالغوا فى تفاخرهم هذا إلى درجة أخطأت الحقائق المقررة فى التاريخ ، فانتحلوا لمصر شخصية الامبراطور دقلديانوس والامبراطور تيودوسيوس والامبراطورة « تيودورا »، وحاولوا أن يطغوا على التاريخ بدعوى جزئية مؤداها أن المسيح لم يولد فى « بيت لحم »، وإنما ولد فى « هيراقليوبوليس » فى الطيبائيد فى صعيد مصر . وكانت مصر فى نظرهم « بلاد الله المختارة » وأقربها إلى قلب المسيح، وأخلصها لعقيدته . ولا شك فى أن تلك الحركة فى جملتها إنما هى حركة انتعاش قومى، بلغت منتهاها من الحده خارج مدينة الاسكندرية الاغريقية الصبغة والروح والحياة ، واشتعلت جذوتها فى المدن المصرية الصميمة التى تنكرت جميعها للأجانب ، وقطعت الصلة أو كادت تقطعها بالامبراطورية الرومانية ، فلم تبق لها بها من علاقة سوى علاقة التبعية السياسية ، وغدونا منذ ذلك الحين نرى فى مصر شعباً مصرياً يحس لنفسه بوجود شخصى مستقل .

وكثيراً ما نلاحظ فى أدب القرنين الرابع والخامس الميلاديين كلمة الاهلى أو القومى صفة لكل شىء مصرى من علوم أو آداب أو دين، حتى لقد يحق أن يقال أن « المسيحية المصرية » كلمة رادفت « القومية المصرية » وأصبحت فى ذلك الوقت علامة عليها .

وفى القرن السادس الميلادى نري ظل كل شيء يونانى يأخذ فى التقلص . ونلحظ فيما كتب الأستاذ « ديل » من أساتذة السربون فى مؤلفه مصر المسيحية والبيزنطية(١) ، فى الفصل الذى عقده للأدب القبطى ، رغبة المصريين الأقباط فى تجنب استعمال اليونانية تجنباً تاماً ، كان من شأنه أن قطع الصلة بين مصر والثقافة اليونانية قطعاً نهائياً .

وبدأ الأقباط يغفلون الآداب الأغريقية اغفالا ، ويكتبون أدبهم الخاص بلغتهم القبطية ، فدونوا بها كتاباتهم الدينية عن حياة القديسين وتواريخ الشهداء ، كما دونوا بها أشعارهم وسير المترهبين فى الأديرة ، مملوءة بالمعجزات والمبالغات التى راقت خيالهم ، وعبرت عن شعور قومى ملتهب ، يمقت الأجنبىّ ثقافتَه وحكمه ، ويمجد تاريخ البلاد وماضيها ومدنيتها ، ويتخذ من كل ذلك أساساً للروح الجديدة . ومبعث ذلك فيما يعتقد جوستاف لوبون(٢) مقدرة هذا الشعب المصرى على الهضم ، واحتفاظه بالدم الفرعونى الصميم إذ يقول :

« غزت مصر شعوبٌ مختلفة ، ولكن البلاد استطاعت رغم ذلك أن »
« تهضم هؤلاء الفاتحين جميعاً ، محتفظة بفنونها ولغتها وعقائدها . فلم يتح »
« لأولئك الفاتحين أن يؤثّروا فيها ... اللهم إلا العرب الذين فرضوا »
« عليها دينهم ولغتهم وفنوناً أجنبية ، ومع ذلك ، ظلت مصر رغم هذا »
« الاخضاع ، فرعونية الدم » .

---

(١) ديل — كتاب مصر المسيحية والبيزنطية ص ٧١٥ Ch. Diehl. L'Egypte Chretienne et Byzantine.

(٢) لوبون - كتاب المدنيات الأولى ص ٨١٤/٨١٥ G.Le-Bon, Les Premières Civilisations.

وهكذا كادت القرون الأربعة التى بدأت بالقرن الثالث وانتهت بنهاية القرن السادس الميلادى، قرون نضال شديد فى مصر، تخبو ناره حيناً وتنطفىء حيناً آخر، قصَد المصريون فى خلالها إلى اثبات وجودهم القومى، ونجحوا فى ذلك إلى حد بعيد.

ويجدر أن نعرف أن هذه الحركة المصرية التى أشعل القبط نيرانها، لم تكن ثورة على النظام الاقتصادى الرومانى فى مصر فحسب، بل كانت حركة قومية بالمعنى الصحيح، صحبها ما يصحب الحركات القومية من ظهور أدبٍ خاص وفنون وطرائق خاصة — ففى ميدان الأدب كتب القبط رسائل عن تاريخ البطارقة وشهداء المسيحية، ومجّدوا السيد المسيح، وظهرت لهم فى عالم الوجود آداب دينية فى جملتها، اصطبغت بالصبغة القومية المصرية. وفى ميدان الفن بدأ القبط منذ القرن الثالث الميلادى ينشئون لهم فناً مصرياً قبطياً، فيه كثير من التقاليد الفرعونية الموروثة، وقليل من الفنون الهلينية. ونما هذا الفن واضطرد نموه حتى أدرك فى القرن الرابع والخامس ذروته، متمشياً مع نضوح الحركة القومية، وبالغاً معها درجة الاكتمال فى وقت واحد(١). وهو صورة من صور النضوح القومى على كل حال، أو هو احياء لتقاليد قديمة ذكرت القوم بما كان لهم فيما مضى من ذاتية واستقلال. وهذه المرحلة التى اصطلح علماء الفنون على تسميتها بالفن القبطى، أن هى إلا صورة من صور الاستقلال الفنى الذي يلازم أحيانا فكرة الاستقلال السياسى.

على أنه يلاحظ أن قوة الانتاج الأدبى الدينى، وقوة التقاليد الفنية

---

(١) بطلر — الخزف الإسلامى ص١٨ — بطلر: فتح العرب لمصر (التعريب) ص٨٣/٨٤/٨٥/١٠٣

القبطية ، لقيتا نجاحاً كبيراً خارج الاسكندرية معقل « الهلينزم » المكين . ولا غرو ، فقد وجدت المسيحية لنفسها انتشاراً ورواجاً عظيمين خارج هذا النطاق . وأنشأ « سانت أنتونى » نظام الأديرة فى المسيحية المصرية ، ونظم « باخوم » حياة الرهبان تنظيما لا بأس به . ومما يسترعى النظر أن قادة الفكر المسيحى بذلوا كل جهودهم خارج الاسكندرية ، وعاشوا على جانبي النيل فى الأديرة التى أنشأوها فى كثير من الجهات على ضفتيه عيشة انعزال ، [1] ساعدت على الابتعاد عن الرومان ابتعاداً روحياً .

* * *

وهكذا أتُخذت المسيحيةُ وسيلةً لاذكاء الروح القومية وأداة للانفصال الروحى عن الدولة الحاكمة ، فكان هذا البعد المتعمد عن الاسكندرية ، مستقر الأداة الحكومية ، ومستودع الثقافة اليونانية الهلينية فى صورتها المتأخرة ، نذيرَ ذلك الانفصال الذى تهيأت البلاد له قبيل الغزو العربى ، بل ودعامتَه التى قام عليها — فغدونا نرى إلى جانب المسيحية أدباً خاصا يسندها، وفنا متميزاً يخدم أغراضها ، بَعُد بعداً كبيراً عن الفن « الهلينى اليونانى » وغدا له طابعه الخاص . استخدم هذا الفن فى بناء عمائر الأديرة ، وابداع النقوش التى تزينها ، وادى فن التصوير بوجه خاص ، مهمته فى خدمة المسيحية ، ولا سيما فى تصوير المخطوطات الدينية . ومهما يكن من شىء ، فقد ظهرت مميزات هذا الفن الجديد فى ميادين العمارة والنحت ، وفى الفنون الفرعية اطلاقاً — وهو فن له ذاتيته ، يتصف بشىء

(١) ص ٥٥ — ٦٠ The Art of Egypt through the Ages, Coptic Art.

تذيق من الجفاف والبعد عن تمثيل الطبيعة ، وبمسحة أغريقية متداعية ، وهو في جملته إذا اعتبرناه فناً قومياً ، فن مصري قديم متأثر بروح «الهلينزم» التي غلبت على البلاد دهوراً طويلة . وإذا عد — كما يرى بعض مؤرخي الفنون — مرحلة من مراحل الفن اليوناني ، فهو مرحلة انحطاط وتأخر ، لانه فقد الشيء الكثير من مميزات الفن الكلاسكي اليوناني - الروماني .

على أن ما فقده الفن الهليني من مميزات في شخص هذا الفن الجديد ، كسبته القومية المصرية بلا مراء ، فقد بثت روحها القوية فيه ، واتخذت منه وسيلة للاعلان عن وجودها المستقل ، وأداة انتفاع لا بأس بها ، خدمت النهضة القومية في ناحية من نواحيها .

ونحن إذا أعملنا الفكر قليلا ، ألفينا أن المسيحية نفسها قد اتخذت في مصر طابعاً محلياً خاصاً ، ناوأت به المذهب الديني الحكومي مناوأة شديدة ، وليس ذلك إلا النزوع بعينة إلى الاستقلال ، والرغبة الملحة في الانفصال عن جسم الدولة — فاذا كان القبط قد رغبوا مبكرين في سلوك سياسة المناوأة ، فما ذلك إلا لميل كامن في النفوس إلى الانفصال الروحي والتحرر الفكري . واتخذت هذه المناوأة شكلا عملياً صامتاً ، اتضح على مر الزمن رويداً رويداً ، فأفصح عن حركة قوية ، لها كل صفات الحركات القومية ، من ايمان راسخ بتفوق العنصر وسمو ادراكه ، وافتخاره بماضيه ، واعتزازه بفنه وآدابه ، وتمجيد طرائقه الخاصة .

* * *

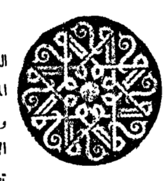
وتحلى المصريون في جهادهم هذا بالأناة والصبر ، وهما من أهم مميزات القومية المصرية ومن أخص علاماتها ، وقد يبدو لمن يجهل حقيقة النفس

المصرية ، أنها تصبر على الهوان وتسيغه ، وتقبل الخضوع لسلطانه الجائر ، والحقيقة أن المصريين مصابرون يؤمنون بحقوقهم ويستمسكون بها ، وقد تستتر هذه الحقوق آجالا طويلة ، وقد يطغى عليها الزمن بأحداثه الجسام ، فتختفى كما تختفى جذوة النار فى الرماد ، ولكنها لا تموت أبداً . وفى الخلق المصرى ميل إلى مصانعة القوة ومهادنتها زمنا — لعله السر فيما يبدو تساهلا أو خضوعاً أو استسلاماً للغاصب ، وما هو بالتساهل أو الخضوع أو الاستسلام !

* * *

من أجل هذا حق القول بأنه قد يطول بنا معشر المصريين انتظار النصر — ولكن مهما طال بنا أمد الانتظار ، فلا شك أننا فائزون آخر الأمر .

٤ — دين الخـــلاص



حكم الروم فى مصر جائر غير مبرّر — غايته الانتفاع وأبعد أغراضه النفع — الجشع المادى وأثره فى نفوس المصريين — صوفية النفس المصرية والتماسها الجزاء فى الدار الآخرة — الخلاف الدنى بين المصريين وبين حكامهم من الرومان — شدة ذلك الخلاف وهوله — سوء النظام الادارى فى البلاد وضعف القوة المعنوية — التماس القبط للخلاص — تطلعهم الى الاسلام يلتمسون فيه ذلك الخلاص — شبه الاسلام بالمسيحية الحقة — دين يدعو الى الخير ويحث على الاحسان .

منذ انتهى القرن الثانى بعد ميلاد المسيح ، وهو العصر الذهبى لحكم الروم فى مصر ، لا ينى التاريخ يذكر من مظالم الحكم الرومانى ومفاسده الشىء الكثير ، وما أن حل القرن الخامس الميلادي ، حتى كان الفساد قد تغلغل فى جسم الدولة ، وعمل عمله السيء فيه ، فمنذ نهاية القرن الرابع استحكم الخلاف بين المصريين وحكامهم من الروم ، وبلغت الهوة بين الفريقين مبلغا سحيقا تجلى فى الخلاف الذى نشأ بين الكنيسة المحلية وبين الحكومة ، وهو خلاف سياسى فى الحقيقة جاء نتيجة لنضوج العقلية المصرية ورغبتها فى التحرر من سلطان الروم — وكثيرا ما تتخذ مسائل الدين ستارا يخفى وراءه أغراضا سياسية .

كانت الدولة الرومانية فى مصر اغريقية الروح ، بلاطها يونانى الصبغة ، ولغتها يونانية كذلك ، مشبعة بتقاليد اليونان وعاداتهم — كانت مسيحية الدين ، على خلاف دائم مع مسيحيي مصر . رومانية فى أساليب الحكم ، بمعنى أنها كانت دولة نفعية يقوم سلطانها على العنف والقسوة ،

ولا سبيل الى بقائها بغير ذلك. ويصعب فى عرف السياسة أن تقوم دولة واسعة الأطراف بفرض سيطرتها على أقوام مختلفين، دون أن تبرر هذه الدولة سيطرتها وفتوحها بآراء فلسفية قد تجوز على الشعوب المقهورة وقد لا تجوز. وقديما برّر «الاسكندر المقدونى» فتوحاته الواسعة بفكرة مزج «الشرق» بالغرب وازالة التجافى بينهما ونشر الثقافة الهلينية بين ربوعه، قصد تحضيره واستدراجه الى حظيرة المدنية. وفى الأزمنة الحديثة فعل «بونابرت» مافعله الاسكندر، فاتخذ تحضير «الليڤانت» (شرق البحر الأبيض المتوسط) ذريعة لاحتلاله وحكمه، واستصحب معه العلماء ليحقق بأبحاثهم الجانب المعنوى من الغزو. وفى العقد الثانى من القرن العشرين أشعلت نيران حرب ضروس باسم المـــدنية، وسجلت بريطانيا ذلك على «المدالية التذكارية» التى منحتها لمن اشتركوا فى الحرب الكبرى، وقد كُتبت عليها العبارة الموجزة الآتية «الحرب من أجل المدنية». ومهما يكن من أمر هذه الدعاوى، فهى ضرورية فى كل العصور لتبرير أعمال العدوان وإكسابها صبغةً مشروعة. ولقد أفلحت تلك الأساليب وآتت أُكلها إلى حين. ومن أجل ذلك كان الفتح الذى لا يستند إلى شيء من مثل هذه الدعاوى فتحا مرموقا بعين الكراهية، منعوتاً بالاغتصاب، لا ترتاح اليه الأمم المقهورة عادة ولا تحتمله إلا ريثما تتهيأ لرده. ولقد كان ذلك حال المصريين مع الأمم التى أغارت على بلادهم مدفوعة بعامل النهم المادى أو الرغبة فى السيطرة السياسية.

قبل المصريون دعوى «الهلينزم» التى حمل الاسكندر لواءها أكثر مما قبلها غيرهم من الشعوب التى غلبها الاسكندر على أمرها — وذلك لقدم عهدهم بالحضارة وتهيؤ عقولهم لقبول المدنية، وهم قبلوها مع

ذلك بحذر وتوجس شديدين، واستطاعو بمزاياهم العقلية الخاصة، أن يهادنوا هذه الحضارة الدخيلة ويخلوا لها السبيل، فما أن استقرت فى أطراف البلاد منعزلة محصورة فى الاسكندرية، و«نقراتس» فى غرب الدلتا، حتى تمكن المصريون من التأثير فيها بخصائصهم الغلابة، ورفضوا مالم يتفق منها مع قوميتهم المحافظة.

ونجحت «الهلينية» فى مصر الى مدى بعيد، ومكن لها الزمن الطويل من الاستقرار فى الاسكندريه، لا تعدوها الا مرتدة الى وكرها، منكمشة فى اسراع.

وآلت مصر الى الرومان، كما آلت أثينا ذاتها. ولم تتفوق «الرومانية» على «الهلينية» بمبادئها وخصائصها المعنوية — حيث لم يكن لها مبادىء معروفة، وانما تفوقت بقوتها المادية، وهى لهذا السبب ذاته، لم تقم فى بلد من البلاد التى أخضعتها الا معتمدة على الحديد والنار. والمدنية الرومانية فى جملتها آخذة أكثر منها معطية، بعكس المدنية اليونانية ذات الصفة الانسانية التى أعطت العالم فى عنفوانها ولم تأخذ جزاء ما أعطت شيئا — ولئن كانت المدنية الاغريقية (اليونانية) لم يقدر لها الانتشار أول الأمر الا مصاحبة للغزو الحربى والتوسع السياسى، فأنها على كل حال لم تفقد يوما ما مزاياها الانسانية، على الرغم مما صحبها من الاطماع المادية والسياسية.

لهذا كان الحكم الرومانى فى نظر المصريين غير مشروع وغير مُبَرَّر، لأنه حكم خلا من النفع، ولقد يصح أن نُرجع الى هـذا المعنى كل شرور الحكم الرومانى وآثامه، فقد حكم الرومان مصر حكما كل غايته الانتفاع وأبعد أغراضه النفع.

* * *

لاقى المصريون صنوفا من الارهاق والحرمان، وصبروا على الأذى دهوراً طويلة ، وضربوا المثل الأعلى فى الجلد وطول الأناة ، ولعل من أظهر ما يميز النفس المصرية استسلام تام لقضاء الله فيها ، وتصوف غلب عليها فجعلها لا تنظر الى هذه الدنيا نظرة جد ، ولا تبغى منها غير الكفاف الذى يسد الرمق أو يغنى من الفاقة ، ولقد كد المصريون كدا فى سبيل العيش طيلة حكم الرومان الجائر ، غير ناظرين الى نعيم هذا العالم — فلم يكن ثمة اليه من سبيل — إذ قد باعد الرومان بينهم وبين أمنية كهذه ، باجتذاب الانتاج على تنوع أشكاله الى «روما» — ولو كان فى نفوس المصريين نزوع الى المادة ، وانصراف الى هذه الحياة الدنيا ابتغاء نعيمها ورخائها ، لكانت الحال غير ما رأينا .

* * *

عرف المصريون منذ القدم الايمان بالعالم الثانى ، والاعتقاد فى فناء هذا العالم ، يؤيد ذلك قول هيرودوت «ان المصرى يعتبر داره فى الدنيا مقاما مؤقتاً والقبر مستقره الأبدى» — ومن ثم طمح المصرى الى حياة أبدية فى العالم الآخر ، فيها نعيم مقيم وأمنٌ وراحةٌ وبعدٌ عن شرور المادة وتطهرٌ من أدرانها .

غلبت هذه النزعة الصوفية على نفوس المصريين ، ولازمتهم ملازمة الغريزة ، وأثرت فى حياتهم تأثيرها المعروف ، فباعدت بينهم وبين التبرم بسوء حالهم — إبان الحكم الرومانى ، وراضت نفوسهم على التقشف ، وصرفتها عن الثورة على ذلك النظام الاقتصادى الجائر ، مما قد يبدو خنوعا واستسلاما وما هو بالخنوع ولا الاستسلام ؛ وأخذ المصريون يرقبون

وسيلة الخلاص من هذه الحال السيئة ، اما بمفارقة الدنيا ، أو بحدث من الأحداث الجسام التى ينزلها الله بالباغين من عباده ، فتتبدل به الحال غير الحال .

وساعد ما هو مركب فى نفوسهم من الأناة والصبر ، على احتمال هذا المكروه احقابا طويلة ، وظهر التبرم آخر الأمر — لا على شكل ثورة اقتصادية مادية ، كما كان ينتظر ، وانما على شكل خلاف دينى مذهبى ، تجلت فيه رغبة القبط فى الانفصال الروحى عن الدولة الرومانية ، وسنفصل هذا الخلاف الدينى المذهبى فى موقعه ، لنرى كيف باعد بين أبناء العقيدة الواحدة ، وقرّب بين اتباع عيسى واتباع محمد .

* * *

عانى المصريون فى حكم الرومان أهوالا جساما ، أساسها كلها جشع هؤلاء ونهمهم ، وابتزازهم الأموال بشتى أنواع الضرائب ، وقد حاول الروم جاهدين أن يتخذوا من نظام الضرائب البطليموسى أساسا لنظامهم المالى ، فلم يوفقوا . فقد فرضوا على المصريين ما كان البطالسة قد فرضوه من ضرائب ، ولكنهم زادوا عليه الكثير مما ابتكروه ، خالفوا البطالسة فى صميم سياستهم المالية ، فقد أخرجوا من البلاد كل ما جمعوا من أموال ، فأرسلوه إلى روما ثم إلى القسطنطينية بينما كان البطالسة يجمعون الأموال لانفاقها على مرافق مصر المختلفة — ولم يكن هؤلاء الروم ينظرون إلى مصر إلا نظرة استغلال ، وكانت الضرائب الرومانية ضرائب مرئية ، يشعر الخاصّ والعام بعبئها وفداحتها وتنوعها ، عينية تثير الحفيظة فى النفوس فتنفّر الناس من حكم هؤلاء الرومان وتسخطهم عليهم .

يضاف إلى ذلك ، الخلاف الذى استحكم بين القبط والحكومة حول

طبيعة السيد المسيح عدة أجيال ، فقد حاولت الدولة أن تفرض المذهب الذى ابتدعته رجال الدين الرسميين لازالة ما أحدثه « مجمع خلقدونية » من شقاق بين المسيحيين . وصادف أن عُيّن «قيرس» أسقف فاسيس من بلاد القوقاز كبيراً لأساقفة الاسكندرية ، وكان لهذا التعيين أسوأ النتائج ، فقد عقد قيرس النيةَ على أن يغلب المذهب الرسمى على ما عداه من المذاهب المخالفة ، متوسلا بكافة الوسائل حسنها وقبيحها — على أنه أخفق كل الأخفاق فيما اعتزم ، وقاده الاخفاق إلى البغى والتنكيل بمخالفيه الذين ذاقوا على يديه أهوالا جساما ، وغدا اسمه مفزعاً ، كريهاً عشر سنين — وما كاد قيرس يبلغ الاسكندرية حتى أخذ بنيامين راعى الكنيسة القبطية يحض أتباعه على الثبات على عقيدتهم مهما كلفهم ذلك من ثمن ، وكتب إلى أساقفته جميعاً يدعوهم إلى الالتجاء إلى الجبال والصحارى يتوارون فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه ، وتنبأ بما سيحل بالبلاد من بلاء ، وفر هو نفسه إلى أديرة وادى النطرون ، ولكنها كانت قد خربت قبل ذلك بزمن ، فلم تعد صالحة للاقامة فيها ، فتركها إلى الصعيد ، ولاذ بدير فى مدينة « قوص » . وشرّد مجىء قيرس قسوس القبط كل مشرّد — وزاد من بطشه أن عينه الأمبراطور حاكماً زمنياً على مصر ، فأطار ذلك صواب الأقباط ، لما وجدوه من اجتماع سلطان الدين وسلطان الدنيا فى يد هذا الطاغية(١) .

والواقع أنه لم تكن هناك فوارق جوهرية بين المذهب المنوثيلى (مذهب الحكومة) ، والمذهب المنوفيستى مذهب القبط ، وأدى رفض التفاهم إلى مصائب جسيمة . وكانت حجة القبط فى ذلك الرفض أن

(١) بطلر : فتح العرب لمصر — والتعريب ص ١٥٥

المذهب الجديد بدعة لا يصح أن تدخل على عقيدتهم فى السيد المسيح، فقابلوه (أى المذهب الجديد) بأشد أنواع الكراهية — ويزيد بطلر فيقول: « وقد كان استقلالهم فى أمور الدين أكبر ما تتوق اليه نفوسهم، فانهم لم يعرفوا الاستقلال القومى قط، ولعلهم لم يحلموا يوماً ما بمثل ذلك الأمل، وأما الاستقلال فى أمر الدين، فقد ناضلوا من أجله، ولم ينثنوا عن ذلك فى وقت من الأوقات منذ كان اجتماع مجلس « خلقدونية »، وكانوا حريصين على بلوغ ذلك الغرض، لا تغفل عنه قلوبهم، ولا يحجمون عن بذل كل شىء فى سبيله مهما عظم »(١)

على أننا نخالف الدكتور بطلر — إذ ندرك فى الرغبة فى الاستقلال الدينى نزوعاً إلى الاستقلال السياسى، سيما وقد ظهرت إلى جانب هذه الرغبة مظاهر أخرى قومية — هى نشوء أدب خاص، وفن مستقل، واعتزاز بالأصل، وكراهة عنصرية، وبغض لكل ما ليس مصرياً — أوقد نارها واذكاها ظلم الغاصب وطغيانه.

* * *

وهكذا احتفظت مصر بقوميتها، وعزرتها بمذهب دينى مستقل دافعت عنه دفاع الأبطال وحافظت عليه محافظة ليست إلا صورة من صور الحرص على بقاء شخصيتها، ودوام استقلالها. وباعدت الأحداث بين القبط وبين حكامهم من الروم، وزاد الهوة بين الفريقين عامل الجنس، فقد كان الروم آريين والقبط من الساميين والحاميين — وأدى اختلال النظام الادارى وانحلاله إلى ضعف سلطة حاكم الاسكندرية وهو كبير

(١) بطلر : فتح العرب لمصر — التعريب ص ١٦٠

الحكام الرومان فى مصر. وكان النظام الادارى فى مصر قبيل فتح العرب لها نظاماً معتلا — إذ انقسمت البلاد فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادى أقساماً هى : —

(١) الاسكندرية ويقيم فيها الحاكم الرومانى الأكبر المعروف باسم « الدوق الأعظم »

(٢) منطقة شرق الدلتا ويحكمها (دوق).

(٣) منطقة اركاديا وهى مصر الوسطى والفيوم ، ويحكمها (دوق).

(٤) منطقة غرب الدلتا ، « ليبيا » ويحكمها (دوق).

(٥) منطقة الطيبائيد : وهى مصر الجنوبية حتى حدود السودان ، ويحكمها (دوق).

وكانت الرئاسة العليا لهؤلاء الحكام جميعاً ممثلة فى حاكم الاسكندرية ، غير أن ضعف سلطته أدى إلى استقلال كل من الحكام الآخرين بأقليمه وتكوين جيش خاص — ولكن الحالة المعنوية بين الجنود الرومان كانت سيئة للغاية ، زادمن سوئها شعورهم بأنه لا تربطهم بهذه الأرض رابطة الوطن. وانعدمت من جراء هذا التخاذل ، الوحدة التى لا غنى عنها لدفع خطر داهم.

ومهد ذلك كله إلى التماس القبط الخلاص فى حدث جسيم يحل فيقيهم شرور تلك الحياة ومفاسدها — وكثر ارتقابهم لجند الاسلام ؛ ولعله قد خطر بقلوبهم أن الخضوع للاسلام يخفف من الويلات والآلام التى جعلت حياتهم نكداً وعبثاً كبيرين ، وأن نير المسلمين قد يكون أخف

وطأة من نير هرقل وقيرس ، نعم — لعلهم رأوا فى هبة المسلمين هذه نازلة أنزلها الله بالروم .

من هذا نفهم كيف سهل على العرب فتح هذه البلاد على قلة عددهم،فقد كانوا يقاتلون جيش احتلال رومانى مفكك العرى ، ولم يجدوا بالبلاد شعباً متماسكا ، وإنما صادفوا فى مصر قوى منهكة أعياها الجهاد الطويل وبرّح بها العسف ، وحرمها مما انتجت أيديها من ثمر الأرض ، — صادفوا بها قوماً يرتقبون الخلاص ، يرتقبونه أين كان — فى فجاج الأرض أو أجواز الفضاء .

* * *

حقاً — لم يكن يدرى قيرس ، ولم تكن يعلم الروم أن هذا العسف الذى اجترحوه مع المصريين، كان قد مهد السبيل تمهيدا لمطلع جنود الاسلام. فقد تطلع القبط إلى الاسلام تطلعهم إلى وسيلة الخلاص — والظاهر أن القبط لم يروا فيما بينهم وبين المسلمين الفاتحين خلافاً جوهريا فى الدين ، فقد كانت الخلافات المذهبية المسيحية قد بلغت بين المسيحيين أنفسهم غاية اضطرامها، وكثرت فيها المناقشات والتآويل، واتسعت الهوة بين أصحاب الدين الواحد حتى غدت الهوة بينهم سحيقة لا سبيل إلى النجاة منها — ذلك فى حين كان الاسلام ما يزال ديناً «كلياً» غير مشروح، لا يختلف معتنقوه فيما بينهم كما يختلف المسيحيون — ورأى القبط فى الاسلام شبهاً قوياً بعقيدتهم فى الله — فهو دين الوحدانية ، والوحدانية فكرة تروق عند الفرق المسيحية التى تميل إلى مذهب الطبيعة الواحدة وترفض فكرة الثالوث (وهؤلاء هم المنوفستيون) — ويرى الاسلام فى السيد المسيح مخلوقاً ممتازاً يتصف كسائر الأنبياء بصفات خاصة ، ولكنه ليس إلهاً ، وهو ما يأخذ به فريق النساطرة الذين يدينون

بمذهب « الناسوتية » — يضاف إلى ذلك أن فكرة الصّلب التى لا تروق المسلمين ، ليست مستساغة عند بعض الفرق المسيحية .

* * *

أدى هذا التقارب فى العقيدة - إلى امتزاج روحى بين هذا الشعب المكلوم من أثر الاضطهاد الدينى المذهبى وبين الغزاة العرب الذين نهضوا ينشرون الاسلام فى ربوع العالم المسيحى .

والحق أنه فيما عدا مسألة بُنوة المسيح، لاتختلف المسيحية عن الاسلام فى الأصول والأسس، فجوهر الديانتين واحد ، وكلاهما جاء نتيجة لعوامل روحية معينة كبيرة الأثر فى المجتمع الانسانى ، فقد جاءت المسيحية(١) احتجاجاً قوياً أشبه بالثورة على « المادية » التى كان قد طغى سلطانها على مرافق الحياة المختلفة وأصبحت شغل اليهود الشاغل فى كل مكان، تلك المادية التى حاولت المسيحية الغض من شأنها جاهدة ، وقدّر لها النجاح فى القضاء عليها إلى حد بعيد . ومما يستلفت النظر أن الرومان اتخذوا « المادة » أساساً فى بناء صرح أمبراطوريتهم الواسعة ، وبسببها عسفوا وبطشوا حتى صح أن ينعت حكمهم بأنه حكم مادى جائر لم يساعد المسيحية على أداء رسالتها ؛ وبلغ جشعهم المادى درجة لا تطاق على ما هو معروف ، وباعد ذلك بينهم وبين المحكومين ، وصبر المصريون على الأذى وصمدوا له دهوراً وآماداً ، والحق أن المسيحيين المصريين وجدوا فى الاسلام منقذاً لهم من شرور الروم ، فقد ندّد الدين الجديد تنديداً شديداً بظلم الروم وطغيانهم ، وذكّر القبط ، وما كانوا غافلين ، بتفانى اليهود فى حب المادة — ذلك التفانى الذى جاءت المسيحية لتنفّر منه ، وتقضى عليه ، ولا شك أن عسف

(١) سيد أمير على « روح الاسلام » ص ١٧٩ وما بعدها .

قرون ستة أو تزيد، لم تَكـُف فى خلالها الادارة الرومانية عن جمع المـال بوسائل لا تبررها شرائع الانصاف، ولا تسيغها النفوس الكريمة، قد فعل فعله فى نفوس القوم، وذكّرهم بجهود السيد المسيح فى القضاء على المادية اليهودية.

ولقد وجد القبط فى الاسلام دعوة ألفوها فى المسيحية من قبل، ترمى الى الغض من شأن المادة دون أن يحرم الانسان نصيبه الضرورى منها، كما وجدوا فيه تمجيداً للزهد والرضى والقناعة وغير ذلك من مظاهر التصوف التى اعتنقها زعماؤهم وأنفقوا الحياة فى الأديرة يمارسونها مخلصين معتقدين أن ذلك يقرب نفوسهم من الخالق عز وجل، ويروضها الرياضة الروحية التى يحض عليها الدين، ويُجزى فاعلوها جزاء ما كانوا يعملون.

***

وقبل أن تأتى المسيحية بتعاليمها فى الزهد والرضا والقناعة بما قسم الله لمخلوقاته، وجدت فلسفة الاسكندرانيين (الافلاطونية الحديثة) فى هـذه البلاد مرتعاً خصبا لآرائها التصوفية، حاضـّـة على الزهد والتقشف، متسامية بمبادئها الروحية عن شرور المـادة وآثامها. وليس ببعيد أن يكون انتشار هذا المذهب فى مصر قبل العصر المسيحى، وفى أبانه، أثراً من آثار العنت المادى الذي استهدف له المصريون طويلا فى ظـل الحكم الرومانى، واستمر على الرغم من تشدد المسيحية فى التنفير منه — ولا شك أن فى رواج هذا المذهب التصوفى فى مصر كل الدليل على إيثار المصريين حيـاة الروح على حياة الأجسام. وتروج مثل هذه النظريات الفلسفية عادة فى عصور الظلم، وتجد اتباعا ومعتنقين فى أوقات المحن أكثر من غيرها. وقد حوربت هذه الفلسفة التصوفية فى مصر، كما حورب غيرها من الآراء الفلسفية فى أماكن أخرى، على اعتبار كونها آراء تنبه الأذهان الى الظلم من طريق الدعوة الى احتماله والصبر

على مكارهه — كما حوربت لأنها آراء وثنية لا يصح أن تبقى قائمة مع وجود المسيحية بتعاليمها الخاصة فى الزهد والقناعة والرضى بالمقسوم .

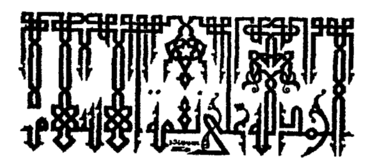
والذى يهمنا من هذا كله هو أن نعلم أن المصريين لا بد أن يكونوا قد أدركوا شيئا من آراء «الاسكندرانيين» ، كما يسمى الشهرستانى اتباع الافلاطونية الحديثة فى زهد المادة ، زادته قوة تعاليم المسيحية من غير أن تقوى هذه أو تلك على انتزاع جرثومته من نفوس عمال الدولة النهمة — فوقع الظلم من نفوس المصريين المكلومة الخانقة موقعه المعروف وزاد التذمر والضجر بهذه الحال دهورا ، وعز الخلاص من هذا الضنك المستحكم الحلقات حتى جاء الاسلام يحمل على دولة الروم حملته القاضية ، ويقوض من أركان ملكهم العتيد ، ويقضى القضاء المبرم على كل ما كان لهم من جبروت وطغيان .

وهكذا وجد القبط فى الاسلام قربا من دينهم وشبها — فقد جاء القرآن مصدقا لما فى التوراة والانجيل ، وطابقت تعاليمه ما فى المسيحية من حض على المحبة والتواضع والرأفة والغفران والتقوية عند الأوجاع الثقال(١) — ووجد القبط فى الاسلام ما ألفوه فى كتابهم المقدس من الاعتدال فى الأمور ، والحض على التصدق ، واقامة العدل والمساواة بين بنى الانسان ، ولمسوا فى هذا الاتجاه الاجتماعى الأخير نفس المبادىء التى روج لها السيد المسيح ، ومكن لها من الذيوع والانتشار وهو يدعو دعوته الأولى على شواطىء بحيرة طبرية (٢) .

---

(١) سيد امير على — روح الاسلام ص١٨١ S. Ameer Ali, Spirit of Islam

(٢) تاريخ الخلفاء المترجم عن الفرنسية — لناقله نخله بك صالح شغوات ، طبعة هندية (١٩١٣).



٥ — اندماج وانصهار

صلات دم قديمة العهد بين المصريين والعرب — الهجرات التاريخية السابقة للاسلام — الهجرة الكبرى — استجلاب العشائر والبطون واسكانهم مصر بعد الفتح — شعب جديد مشترك الميول والمصالح — بقية من الفوارق الاجتماعية لاتلبث أن تزول — خدمات القبط للادارة العربية — استمتاعهم بمزايا التسامح العربى — اعجابهم بسماحة الاسلام وعدله وتمييزه بين قادرهم وعاجزهم — تمازج العنصرين سيما بعد نزول العرب الى معترك الحياة العامة — دخول القبط فى الاسلام وتناقص الجزية — اندماج القبط فى العرب وتكوين القومية الجديدة — الاسلام يحقق مبادىء العدل الاجتماعى للقبط .

بين العرب والمصريين صلات دم قديمة العهد ، فالعرب كالمصريين من الجنس السامى ، ويعى التاريخ هجرات لم ينقطع سيلها من شبه الجزيرة العربية الى الأقطار المجاورة لها ذات الخصب والزرع ، كان العرب يضطرون اليها اذا أقحطت بلادهم بسبب احتباس المطر ، مدفوعين بالضرورة الاقتصادية — عرف العرب البلاد المحيطة بهم معرفة قديمة ، فقد جالوا فى أنحائها تجارا أو وسطاء فى نقل التجارة ، وكانت مصر من دون الأقطار المجاورة لشبه الجزيرة العربية مسرحا لهجرات كثيرة يرجع بعضها الى ما قبل التاريخ .
وقد ساعد على ذلك أنه لا تقوم بين مصر وبلاد العرب سدود جغرافية

منيعة تحول دون تدفق الأعراب الى هذه الديار بطريق سينا وسواحل البحر الأحمر . وتمكن العرب الحجازيون بوجه خاص من اجتياز جبال البحر الأحمر وانتجاع صحراء العرب . وكانت سينا مأهولة بالبدو على عهد قدماء المصريين كما يستدل بالنقوش التى عثر المنقبون عليها تمثل انتصار الفراعنة عليهم . واحتفظ العرب النازحون إلى مصر من قديم الزمان بنظامهم الاجتماعى القبلى الذى ما تزال بعض مظاهره باقية حتى الآن .

ولا يعرف التاريخ لهذه الهجرات المتوالية عدداً . ولا شك أن أعظم الهجرات العربية شأنا هى التى وقعت عند ظهور الاسلام ونشر دعوته ، فقد خرجت جموع غفيرة من بلاد العرب للجهاد فى سبيل الله ، صادفت فى البلاد المفتوحة عشائر من بنى عمومتها — وجاءت هذه الهجرة الكبرى متوجة للهجرات التى سبقتها والتى كانت أشبه شىء بالموجات البشرية تنبعث من وسط شبه الجزيرة الى أطرافها ولا تلبث أن تجاوز الأطراف الى الأقطار المجاورة ،

* * *

تلك هجرات دفعت اليها عوامل الطبيعة بفعل الضرورة منذ القدم ، وهى هجرات جعلت للعرب بهذه البلاد روابط جنس قديمة العهد . ثم جاء الاسلام فخرج العرب فى الدفاع عنه والعمل على رفع لوائه ، وهبطوا مصر وانتجعوها والتقوا فيها اما ببنى جلدتهم من الاعراب الذين نزحوا اليها مبكرين ، أو بقرابة سامية تطلعت اليهم فى محنتها الكبرى ، ورأت فيهم اخوان فى الجنس ، وان بعدت بين الفريقين أرومة الاتصال — وكان العرب على كل حال بالنسبة لقبط مصر أقربَ وشيجة من الروم الآريين .

يضاف الى ذلك ما اصطنعه الولاة من العرب الأوائل من أسكان

البطون العربيـــة أرض مصر وانزالها بعض جهات « الحوف الشرقى » (شرقى الدلتا) . وأشهر حادث من هذا القبيـل هجرة « قيس » فى ولاية الوليد بن رفاعة الفهرى عام ١٠٩ للهجرة ، فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وفى ذلك يقول الكندى : « وفد ابن الحجاب صاحب الخراج على الخليفة هشام ، واستأذنه فى نقل بطون من «قيس» الى مصر ، فاذن له على ألا ينزلهم الفسطاط . وقدم بهم ابن الحجـاب وأنزلهم الحوف الشرقى ، وأسكنت منهم العشائر فى « بلبيس » وتعلمت الزراعة واشترت الخيول والابل واشتغـل أهلها بنقل الطعام (الميرة) الى « القلزم » (السويس) .

وما يقال عن قيس يقـال عن بطون أخرى أنزلها الولاة أرض مصر اعتزازا بعصبيتها واستظهارا بقوتها .

ويفصل المقريزى فى «البيان والاعراب عمن بأرض مصر من الاعراب» ، كيف نزحت البطون العربية المختلفة وأنزلت جهات مصر المختلفة .

وكثر عدد العرب من أثر الهجرة الكبرى التى صحبت الفتح والهجرات الصغرى من بعدها ، وكان العرب الوافدون على مصر عنصرا قويا جم النشاط ، أكثر قوة على التنـاسل من أهل الحضر — وقد تضاعف عدد العرب فى مصر بعد زمن قليل بسبب اباحة تعدد الزوجات والتسرى وملك اليمين ؛ ولم ينقض القرن الأول الهجرى حتى تكاثر العرب ، وكان ذلك على حساب القبط الذين أخذ عددهم فى التناقص النسبى .

* * *

وجدير بنا أن نبين كيف تم اختلاط القبط بالعرب ، وكيف أحدث هذا الاختلاط شعبا جديدا متحد المصالح والميول ، تعتنق أغلبيته الاسلام ، وتهادن الأقلية غير المسلمة فيه الأغلبية المسلمة ، وتشاركها عواطفها

وعاداتها وميولها ، حتى لقد صح أن وصفت البلاد « بالعروبة » رغم بقاء عدد من أهلها على دينهم المسيحى — فلقد كان من أثر الانسجام الذى تم بين المصريين المسيحيين وبين العرب أن اشترك الأولون فى كل ما فرضته العروبة وفرضه الاسلام من العادات والأعراف والطبائع وغير ذلك مما أحدثه العرب فى هذه البلاد فى نواحى الادارة والسياسة والاجتماع والثقافة واللغة ، ونشأت منذ القرن الأول الهجرى للفريقين عادات مشتركة ، وشعور متحد بالمثل العليا ، وروابط مصلحة متبادلة ، جعلت غير المسلمين أكثر استمساكا بالعروبة من العرب أنفسهم ، ولسوف نتبين ذلك رويداً رويداً .

* * *

ومن أشهر الهجرات العربية غير هجرة « القيسيين » فى ولاية الوليد ابن رفاعة الفهرى ، هجرة عرب جنوبى الشام الذين استوطنوا مصر السفلى والصعيد ، وهجرة آخرين يذكر المقريزى نزولهم فى الحوف الشرقى وتزايدهم فى خلافة مروان بن محمد ، واسكان فريق من بطون « جذام » الى جوارهم ، ولقد طالما وقعت بينهم المنازعات على نحو ما كان يحدث فى كل أنحاء الدولة الاسلامية من تشاحن بين القيسية واليمنية مثلا — ويذكر المقريزى كذلك « بنى عقبة » من جذام الذين نزلوا ما بين ايلة والحوف ، كما نزح نفر من « جذام » و « لخم » الى الاسكندرية ، وكانت لهم بها أيام مشهودة ، ونزل من العرب بصعيد مصر « أولاد الكنز » من ربيعة الذين قدموا مصر فى زمن المتوكل العباسى ، وتفرقوا فى صعيد مصر ، براريه وأوديته ؛ وانتقلت بطون من « قريش » الى الأشمونين والدقهلية ، وسكنت « جهينه » حول أسيوط وجنوبيها ، ونزل « بنو كلاب » بالفيوم ، وسكنت « سعود »

و «جذام» ما بين منية غمر وزفيتا ، ونزلت طوائف من «فزارة» اقليم الغربية وقليوب ، وسكن قوم من «نصر بن معاوية» من هوازن حول تنيس ودمياط ، وكانت لهم شوكة شديدة ، وتكاثر عددهم وملأوا أسفل الأرض (الدلتا) .

وكان من سياسة كل وال عربى أن يستقدم البطون والعشائر التى تؤيده وتناصره بعصبيتها ، فيقوى ويشتد أزره ، ويستطيع بها التغلب على بقية البطون المناوئة — ومن هؤلاء الولاة «حوثرة الباهلى» الذى يذكر المقريزى فى الخطط قدومه فى آلاف من الاعراب ، ومعظم الظن أنهم كانوا من قيس عشيرته .

ومن القبائل التى نزلت وسط الدلتا «بنو نصر»(1) ؛ وكثر عدد النازحين فى القرن الخامس الهجرى فى العصر الفاطمى ، حين استدعى الوزير «اليازورى» (٤٤٢ هـ) بعض القبائل التى كانت تنزل جنوب فلسطين وأقطعها أرض البحيرة .

ومما يجدر ذكره أن كثيراً من العرب الأشداء نزلوا الثغور ورابطوا فيها فى سبيل الله . وأُقطع العرب الاقطاعات ، يخرجون اليها من رباطهم ، ويختلطون بالمصريين فى أعقار بيوتهم ، «حتى اذا يبس العود ، وسخُن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وانقطع الورد من الشجر ، عادوا الى فسطاطهم على بركة الله» .

وكان نزول العرب أول الأمر فى الثغور وفى الفسطاط ، لا يبرحونها الا باذن من القائد ، يكتب لكل قوم بربيعهم ولبنهم .

ورغب القبط أول الأمر عن الاختلاط بالعنصر العربى الفاتح ، وظلوا

---

(1) الخطط ص ٣٦٥ جـ ١ طبعة بولاق

منعزلين فى قراهم ، لا يتدخل عربى فى شئونهم ، ولا يجيئهم الا زائرا فى فصل الربيع ، ولم تكن هذه العزلة لتدوم طويلا — فمن شأن سكان القطر الواحد الاختلاط والامتزاج ؛ ولم تبدأ المــائة الثانية للهجرة حتى انتشر العرب فى قرى مصر ، وجاسوا خلالها ، متعرفين معالمها ، متقربين من أهلها .

ودأب العرب فى سياستهم على أن يتركوا أهل البلاد المفتوحة فى مزاولة أعمالهم الخاصة من حرف أو زراعة أو نحوهما ، ونظروا اليهم ، فاعتبروهم دونهم فى المكانة الاجتماعية - وذلك دائماً شعور العنصر الفاتح - فى الوقت الذى عولوا فيه عليهم فى انتاج الغلة التى تقيت المسلمين فى البلاد المغزوة بل وفى شبه الجزيرة العربية ذاتها — ولذلك سمى صاحب كتاب الخراج هؤلاء « مادة المسلمين » .

وسواء تحول القبط إلى الاسلام ، أم بقوا على دينهم ، فقد كانت لهم المكانة الاجتماعية الثانية بالنسبة للعربى المسلم — ولكنهم تمتعوا كذميين بحماية العرب المسلمين لهم ، وأعفوا لذلك من كل التزام حربى ، وقد حال دون قيامهم بالخدمة فى الجيش أنهم غير مسلمين، وفرضت عليهم فى مقابل ذلك جزية ، ومُنحوا حق التعامل بقوانينهم الخاصة ، (وقد أبقى الأتراك العثمانيون على هذا النظام فى فلسطين وسوريا حتى زمن متأخر) . وكذلك قضى بصر العرب بالأمور أن يبقوا على القبط فى خدمة الدواوين أبقاهم على بعض كبار الحكام الروم فى مناصبهم ، وكاد عمال الدولة يكونون جميعاً من المسيحيين . وقد كان فى وسع العرب أن يستولوا على زمام الأمور ويديروا دفتها بأنفسهم ، لولا أنهم أرادوا أن يفرغوا من

اعباء الادارة إلى أمور الحرب والدين، وكان ذلك الابقاء منهم تسامحاً وفطنة فى آن واحد ، وكانت له نتائجه الطيبة على كل حال .

وأجمع المؤرخون على أن المصريين لقوا فى ظل العرب تساهلا اقتصادياً لم يكن لهم به عهد فى حكم الروم — ، فقد أزال العرب ما كان مقرراً من التفريق بين الناس فى جباية الضرائب ، واعفاء بعضهم منها ، إذ قضى عهد الصلح بين العرب والمسيحيين أن يدفع الأخيرون الجزية فى مقابل أن يأمَّنوا فى بلادهم ويُدفَعَ عنهم ، وكان ذلك عهداً استقر أهل الذمة عليه . وقد طرأ على هذا العهد بعد قرون ثلاثة ، شيء من التغيير ، إذ تقيّد دفع الجزية بشرطين : شرط يجب لزومه فى كل الأحوال ، ويقضى بعدم اعتداء المسيحيين على القرآن، وألا يحقّر قولُ النبى ، وألا يتعرض هؤلاء للاسلام أو يسبّوه، وألا يتزوج مسيحى بمسلمة ، وألا يُغرّر بمسلم أو يُؤذى فى ماله أو نفسه، وألا يُوالى أعداءُ الدين، أو ينصروا، أو يكرم أغنياؤهم — وشرط آخر يكون اتباعه ولزومه بحسب شرط العقد إن وجد الشرط ، ويقضى بألا يلبس الذميون لباساً متميزاً ، وألا ترتفع منازلهم عن منازل المسلمين ، وألا يؤذوا المسلمين بقرع نواقيسهم ، أو بالجهر فى ترتيل الصلاة، (وقد سوى العرب فى ذلك بين القبط واليهود) ، وألا يبدوا الصلبان أو يشربوا الخمر علانية ، وأن يواروا خنازيرهم — وقد قبل القبط ذلك واصطلح المجتمع المصرى عليه ، وأصبح نافذاً كالقانون لأن العرف جرى عليه ، ولا يبعد أن يكون ذلك قد تووضع عليه منذ أول الفتح وعند أول دفع الجزية .

وكانت تلك الجزية دينارين على كل شخص، أعفى منها صغار السن الذين

هم دون الحلم ، والشيوخ والنسـاء والمعتوهين والمساكين العاجزين عن أدائها ، وكذلك الرقيق — وأغلب الظن أنها لم تكن بمقدار واحد على القادر ورقيق الحال ، ففي حين يبهظ الديناران الفلاح ، لا يكلفان الغنى القادر شيئاً . ويرجح الدكتور بطلر أن الحاكم كان يعطى الخيار فى تقسيم من تفرض عليهم الجزية ثلاثة أقسام : الفقراء ، وأوساط الناس ، والأغنياء ، فكان يفرض على كل فئة قسطاً من الجزية خلاف مايفرضه على غيرها . ويذكر المقريزى عن يزيد بن مسلم ، أن عمر كتب إلى قواده يأمرهم أن يجعلوا الجزية بحيث يدفع الغنى أربعة دنانير ، ويدفع الفقير أربعين درهماً . ويقول الماوردى « فى الأحكام السلطانية » : أن الفقهاء اختلفوا فى مقدار الجزية — فقال أبو حنيفة أن الجزية مقادير ثلاثة : يؤخذ من الغنى ثمانية وأربعون درهماً ، — ومن الأوساط أربعة وعشرون درهماً ، ومن الفقراء اثنا عشر درهماً ، ويذكر أن هذه المقادير هى الحدود التى ينبغى للولاة ألا يتجاوزوها أو يخرجوا عنها باجتهادهم ؛ ولا يسع قارىء الأحكام السلطانية إلا الاعجاب بروح العدل ومراعاة القصد فى نظام الضرائب عند العرب . وهو يذكر أنه إذا نقض بعض أهل الذمة عهدهم ، بأن أبوا دفع الجزية لم يحل للمسلمين قتلهم ، ولا أخذ أموالهم ، أو أولادهم ، ماداموا لا يقاتلونهم .

* * *

وهكذا أخذ المسلمون قبط مصر بالعدالة التى تجلت فى تأمينهم اياهم وفى حمايتهم لهم ما داموا قائمين على العهد ، وفى التفريق بين قادرهم وعاجزهم ، وذلك من الاسلام غاية القصد والاعتدال .

ويؤثر عن عمرو بن العاص أنه لم يشأ أن يحكم البلاد على هواه ، بل استشار

فى ذلك البطريق « بنيامين » الذى أشار بضرورة استخراج الخراج فى وقت واحد ، هو فراغ الناس من زروعهم ، ورفع ذلك الخراج فى أوان واحد ، هو فراغ أهل البلاد من عصر كرومهم ، كما أوصى بكرى الخلجان كل عام ، واصلاح الجسور ، وسد الترع ، واختيار عامل لا يتصف بالظلم ، ليلي أمور الناس ، ولا شك أن ابن العاص جرى على ذلك فى أوائل حكمه على الأقل ، حتى عنّفه الخليفة على قلة فيء المسلمين من مصر ، ودافع عمرو عن مصر دفاعاً مجيداً وكتب إلى الخليفة « أن الرّفق بالمصريين خيرٌ من التشديد فى أمرهم »(١) ومن ثم كان اغتباط المصريين بالحكم العربى العادل وكان صلاح الحال بين فريقى المصريين ، — وقد حدث فى خلافة عثمان أن سعى العرب إلى زيادة ما يجبى من مصر ، وعيّر الخليفةُ ابن العاص بقوله « أن اللقاح بمصر بعدك قد درّت البانها » — فأجاب عمرو « ولكنها أعجفت فصيلها » !

وذلك كله يحملنا على الاعتقاد بعدالة حكم عمرو بن العاص ، وحسن معاملته للذميين . ولا شك فى أنه تعذر بعد ذلك امكان الضغط على القبط بقصد زيادة الجزية . أما ما عرف عن تذمر القبط فى وقت من الأوقات ، فلم يكن مرجعه المادة ، فلا نزاع أنهم تنفسوا الصعداء على يدى العرب ، وتمتعوا بثمر الأرض التى كانوا يحرثون ، وكانوا من ثمرها فيما مضى فى حرمان مقيم — اللهم إلا من كفاف العيش .

ولم تكن الجزية ابهاظاً لهم بحال ، فلقد كانت من الخفة والتراوح بحيث يستطيع أداءها كل من فرضت عليه ، وكان الدخول فى الاسلام شرطاً كافياً لزوالها .

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص

وانتا لنجد فى رفض الخليفة «عمر بن عبد العزيز» ما اقترحه عليه «ابن شريح» عامل الخراج على مصر من استمرار فرض الجزية على من يسلم من القبط، وفى تعنيفه له ثم عزله، أعظم دليل على سمو الحكم الاسلامى وعدله وبعده عن الرغبة فى ابتزاز الأموال.

* * *

وعلى الرغم من ذلك ظل القبط بعيدين عن الامتزاج بالعرب والفناء فيهم من الوجهة الاجتماعية — بينما كان العرب المسلمون أكثرية تسود وتحكم، وتخضع هذه الأقلية لسلطانها كلما رغبت فى الانتقاض أو جنحت إلى الثوران.

وكان ذلك مرحلة تطور وانتقال فى حياة المصريين — ولكن ناموس البقاء من شأنه إن يمزج بين أبناء الوطن الواحد وأن يؤلف بين قلوبهم.

وكان لا بد لهذا الامتزاج من أدوار يمر بها، حتى يتم الاندماج بين المصريين من عرب وقبط — ولا شك أن اشتراك المصالح وحده يكفى للتقريب بين العناصر المتباعدة. وقد كان ذلك هو الحال فى مصر — ولا غرو، فقد جرت الأمور فى بلادنا وفق الناموس البشرى العام، وقربت الشقة مع الزمن بين عنصرى الأمة بوسائل شتى تم بها اختلاطهما واندماجهما.

وقد تم اختلاط العنصرين بالتهادن والتزاوج والتمازج والتجاذب، فتزوج المسلم بغير المسلمة، واسلم المسيحى، واشترك المصريون والعرب فى وقت ما فى المصالح والهموم، وذلك حين اندمج العرب فى غمار الطبقات العاملة، وعند ما حرموا من كافة امتيازاتهم فى العهد العباسى، إذ اعتزت الدولة بغيرهم من الترك والفرس فى خلافة المعتصم، الذى أسقطهم من الديوان،

ومنع عنهم الأعطيات ، فدفعهم هذا دفعا إلى احتراف الزراعة والاستقرار فى الأرض ، بعد أن ظلوا طيلة العصر الأموى فريقا متميزا مهمته القتال وحمل السلاح .

* * *

وأدى تقاطر العرب بطونا وعشائر غداة الفتح ، الى انماء الروح العربية فى مصر ؛ وعجيب حقا أن تتحول البلاد فى قرنين من الزمان من دولة مسيحية الى دولة أغلبيتها مسلمة وأقليتها باقية على دينها المسيحى ؛ وتفسير ذلك لا يمكن أن يلتمس فى مجرد نزوح الأعراب — فليسوا ببالغين عدد القبط من سكان البلاد ، وإنما يلتمس فى اسلام القبط أولا وفى استعرابهم ثانيا(١). وقد دفعهم الى ذلك دفعا ما كانوا يجدونه للطبقة الحاكمة من مزايا الحكم والسيادة ، وما كانوا يرونه فى تعلم العربية واجادتها من منافع ومغانم — فقد أبقاهم تعلمها على خدمة الدواوين بعد تعريبها ، والحق أن الاسلام قد استهوى

---

(١) وتروى فى تهالك القبط الذين أسلموا على الاستعراب قصة طريفة لها دلالتها القوية على رغبة القبط فى نسيان أصلهم المصرى وادعاء العروبة ، وتعرف هذه القصة الطريفة بقصة «الحرس» وتتلخص فى أن طائفة من القبط الذين أسلموا ذهبوا فى خلافة الرشيد الى أنهم من أصل عربى مبالغة فى التقرب الى العرب ، وجمعوا لذلك مالا كثيرا دفعوه الى القاضى العُمَرى ، ليثبت لهم نسبا عربيا ، وقد استعانوا فى ذلك بنفر من عرب الحوف الشرقى شهدوا أنهم من أصل عربى ، لقاء مال أعطى لهم على سبيل الرشوة ، اذ قرروا أنهم ينتسبون الى حوتكة من قضاعة وقبل العُمَرى أن يسجل لأهل الحرس نسبا عربيا ، فثار لذلك عرب مصر وهجا الشعراء القاضى العُمَرى هجاء مرا من أجل ذلك .. ومن هؤلاء « معلى بن المعلى الطائى » و « يحيى الخولانى » ، وعارض العرب فى خلافة الامين فى نسب هؤلاء ، وكتب الامين الى القاضى البكرى أن يحقق نسب أهل الحرس ، فطلب البكرى منهم اقامة البينة على صدق نسبهم الى حوتكة ، وشهد بعض الناس أنهم من القبط ، فردّهم القاضى الى مصريتهم ، ومزق سجلّهم ، وان دل هذا على شىء — فهو قوى الدلالة على رغبة القبط فى الاندماج الكلى بالعرب اندماجا يجعل من الفريقين أمة واحدة .

القبط وضمهم الى حظيرته حين رغبوا فى التخلص من دفع الجزية ، وحين أرادوا لأنفسهم المكانة الاجتماعية الممتازة التى كانت للطبقة المسلمة . وهكذا أدت المنفعة المادية الى دخول القبط فى الاسلام وهى نفسها التى أدت الى انتحالهم العروبة ، ونشأ عن ذلك أن تناقص خراج مصر بسبب اسلام القبط أفواجا ، ولما تناقص الخراج تناقصا أنذر بعجز الادارة العربية عن القيام باعبائها ، كتب بذلك « حيان بن شريح » عامل الخراج على مصر إلى الخليفة «عمر بن عبد العزيز» يشكو اليه قلة خراج البلاد واضطراره الى استدانة المال سداً لرواتب الجند ؛ وطلب « ابن شريح » الى الخليفة ألا يعفى من الجزية من يسلم من القبط — ولكن الخليفة العادل لم يقره على رأيه ، وكتب اليه كتابا شديدا وعزله عن جباية الخراج . ومن مأثور قول الخليفة فى ذلك « ان الله بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً »

* * *

أعجب القبط بسماحة الاسلام واباحته تأدية العبادات الاسلامية باللغة المحلية باذن من النبى عليه الصلاة والسلام ، كما أباح الامام أبو حنيفة القاء خطبة الجمعة بلغة القوم — لأن ذلك كان ضروريا أول الأمر .

وكان ذلك الى حين — فلم يلبث معتنقو الاسلام أن حذقوا اللغة العربية — لغة القرآن ، وأخذوا يؤدون بها الفرائض والعبادات ، ولم ينقض طويل زمن حتى تمكن العرب بنشاطهم الكبير من فرض لغتهم على البلاد جميعها ، كما فرضوا عليها دينهم من قبل .

* * *

وفى الاسلام خصائص تقربه من نفوس البشر ، فهو دين الحرية والعلم

والمعرفة ، وهو دين التطور والرقى والطموح الى المثل العليا فى الحياتين الروحية والمادية جميعا .

وفى طبائع رجاله اعتصام بالصبر وشجاعة وكرم ونجدة ووفاء — وكلها سجايا حميدة ، يضاف اليها خصلة لم تكن للروم من قبلهم ، هى أنهم كانوا يعتَدُّون بعدوهم بينما كان هذا العدو يحتقرهم ويغض من شأنهم لأنهم كثيراً ما أغاروا على بلاده حين كانت تقحط بلادهم ويحتبس عنهم ماء السماء .

* * *

وأن فى أخلاق الخلفاء والقواد لمثلا عليا فى العدل والاحسان — أنظر إلى الخليفة يوصى قائده وهو يوجهه إلى قتال الروم فى الشام بقوله : « إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله ، فذرهم وما حبسوا أنفسهم له . . » (يريد بهم الرهبان) ، ويقول له « ولا تغدر ولا تمثل ولا تقتل هرماً ولا امرأةً ولا وليداً ، ولا تعقرن شاةً ولا بعيراً إلا ما أكلتم ، ولا تحرقن نخلا ، ولا تخربنّ عامراً ، ولا تَغلُّ »(١)

ثم أنظر إلى زهد الخليفة عمر رضى الله عنه فى عام اشتد فيه الجدب ، وعظمت كارثة الجوع فى شبه الجزيرة إذ يقول : « إنى حريص على أن لا أدع حاجة إلا سددتها ، ما اتسع بعضنا لبعض ، فاذا عجز ذلك عنا ، تآسينا فى عيشنا حتى نستوى فى الكفاف . . كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يصبنى ما أصابهم ، ويقسم ألا يذوق سمناً أو لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناس ، وجعل يثرد بالزيت حتى تغير لون بشرته ، ثم ينحر جزوراً يطعمها الناس فيغرفون له طيبها ، فيؤتى بقدر من سنام ومن كبد فيقول : إنى هذا ! — فيقال له

(١) كرد على — الاسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١١٢

يا أمير المؤمنين من الجذور التى نحرنا اليوم، فيقول « بخ ! بخ ! بئس الوالى أنا — أكلت طيبها ، وأطعمت الناس كراديسها ! ارفع هذه الصفحة ، هات لنا غير هذا الطعام ، فيؤتى بخبز وزيت ، فيكسر ويثرد فى ذلك الزيت ، ويرسل الجفنة إلى ناس مقفرين »

أنظر ماذا كان الخليفة عمر يفعل بنفسه مواساة للرعية التى قست عليها الطبيعة عام الرمادة ، ثم قارن زهد ابن الخطاب وورعه وقناعته وعطفه بجشع الرومان واعتسافهم ونهمهم ، وتبين كيف كان القبط فى حكم الروم يقاسون الأمرين اضطهاداً وجوعاً ، وكيف كان تطلعهم إلى الاسلام تطلع خلاص ورحمة !

لقد حض النبي عليه الصلاة والسلام على اكرام القبط والاحسان اليهم ، بقوله عليه السلام فى مرض له : « استوصوا بالأدم الجعد خيراً » — فسألوه عن الأدم الجعد فقال قبط مصر ، — فانهم أخوال وأصهار ، وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم — فسئل رسول الله كيف يكونون أعواناً على ديننا ، فقال « يكفونكم أعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة — فالراضى بما يؤتى اليهم (من الخير) كالفاعل بهم (أى كفاعل الخير بهم) والكاره لما يؤتى اليهم من الظلم ، كالدافع عنهم.(١) »

بهذا الروح وفد العرب على مصر ، فكان وفودهم عليها علاجا لعللها الأجتماعية والاقتصادية والدينية جميعا ، فامحى على يديهم نظام الطبقات الذي كان سائدا فى عهد الروم ، وعانى المصريون من جرائه هوانا شديدا

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر — طبعة هنرى ماسيه (مطبعة مجلس المعارف الخاص بالعادات الشرقية ص ٣)

وضعة وحطة شأن بالغين — وصلحت بسبب عدل العرب فى جباية الضرائب حالة البلاد الأقتصادية ، فقد عدلوا نظام الضرائب ، فجعلوها متناسبة مع غلة الأرض صعودا وهبوطا ، وتنوعت جزية الرءوس بحسب المقدرة ، وأعفى منها النساء والعجزة والأطفال ، واستشعر المصريون كثيرا من الراحة والاطمئنان فى ظل هذا النظام العادل الذى روعيت فيه أحوال الناس وأحوال الأرض ، وتخلصوا من أعباء ثقيلة طالما ناءت بها ظهورهم .
ومن الناحية الدينية انتهى بالفتح الأسلامى ذلك النزاع الطويل من أجل العقيدة بين القبط وبين حكامهم من الروم ، وبطلت الخلافات المذهبية نهائيا ، وساد مذهب المصريين ، وعلا شأنه فى ظل الحرية التى كفلها الأسلام للذميين ممن لم يعتنقوا دين «محمد» . وتمتع القبط بالهدوء الذى حرموه أحقابا طويلة ، وكان ذلك من نعم الاسلام على المسيحية ومآثره عليها — وحقق الاسلام للقبط مبادىء العدل الاجتماعى ، وبدونه لم يكن للمصريين اليها من سبيل .

* * *

وبقى القبط قوة (رغم دخول الكثير منهم فى الإسلام) حتى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجرى ، وكانوا ما يزالون بعيدين عن الاندماج الكلى بالعرب ، يحدثون الثورات من آن إلى اخر — وكانت أشد تلك الثورات ، الثورة التى حدثت فى خلافة « المأمون » ، واضطر الخليفة أن يأتى إلى مصر بنفسه لاخمادها ، وفى هذه الفتنة قتل كثير من القبط ، ودخل منهم كثيرون فى الاسلام ، وانصهروا فى القومية الجديدة .

ونزل العرب عن شعور السيادة الذى ظل يلازمهم طوال القرنين الأول والثانى حينما حلت بهم النازلة الكبرى فحرموا فى عهد المعتصم العباسى مما

كان لهم من امتيازات ، وأدى ذلك الى نزولهم الى معترك الحيـاة العامة ، واشتغالهم بفلاحة الأرض والاستقرار فيها واحتراف الزراعة . حدث ذلك فى الربع الاول من القرن الثالث الهجرى — وانتهى عصر السيادة العربية بانتهاء ولاية عنبسة بن اسحق الضَّبى (٢٣٨ / ٢٤٢ هـ) وكان ذلك نهاية الجفاء بين العرب والقبط ، اذ جمعتهم بعـد ذلك احداث الزمن على غرض واحد هو الحياة الهادئة المطمئنة فى ظل حكومة تقيم العدل وتمنح حرية العقيدة .

وبدأ العرب والقبط فصلا جديدا فى التاريخ المصرى ، وتذاكر الفريقان المتهادنان صلات الرحم وأواصر الجنس ، وابدى القبط أعجابهم بسماحة الاسلام ، وذكَرَ العربُ استيصاءَ النبى بقبط مصر ، كما ذكـروا السهولة التى اعتنق هؤلاء بها الاسلام ، والخدمات الجليلة التى أدوها للادارة العربية . وما أن تم ذلك التهادن فى اوائل المائة الثالثة من الهجرة ، حتى أخلد القبط الى السكينة اخلادا تاما — والحق ان ذلك كان المرحلة الاخيرة فى تاريخ الامتزاج بين الفريقين ، ذلك الامتزاج الذى بدأ بارتياح القبط الى الاسلام الذى اخرجهم من ضيق وآمنهم من خوف ، ثم ظهرت علامته فى اشتراك القبط فى الادارة العربية وفى اضطلاعهم بالحرف والصنـاعات ومسائل الفنون على اختلافها . والمعروف انهم خدموا المسلمين فى هذا الميدان خدمة جلى لا تقل عن خدمتهم لهم فى ادارة الاعمال .

ويتميز هذا القرن الثالث الهجرى بنضوج قومية مصرية اسلامية متعددة المظاهر قوية الطابع لا تعرف الخلافات الدينيه ، تعترف بالمصالح المشتركة بين الطوائف ، يحدوها التعاون الصادق على النهوض بمرافق البلاد بغية الحصول على مكانة لائقة تحتلها مصر بين الامم .

٦ — أمة مصـــرية اسلاميـــة

مظاهر أمة مصرية اسلامية

(ا) مظهر سياسى
(ب) مظهر فنى
(ج) مظهر أدبى

المظهر السياسى — ١

خلق جديد تآلف وتآخ — ولآة من العرب يضربون مثلا أعلى فى التسامح — لم تقو الاحداث على أبعاد عنصرى الامة بعضهما عن بعض — العربية تسود — ذهاب القبط فى الاستعراب إلى أقصى الحدود — اندماج القبط فى الكتلة المسلمة اندماج مصلحة — زواج الاعراب بكثير من نساء القبط — أثر ذلك التصاهر فى الاندماج العام — تعاون وتساند على تكاليف الحياة اليومية بين الفريقين ـ خلق جديد : أمة مصرية اسلامية ذات شخصية ظاهرة فى القيصرية الاسلامية ـ اشتراك هذه الامة فى الاحداث العامة وتأثيرها القوى فيها ـ دلائل الحيوية فى الشعب الجديد ـ نضوج القومية الجديدة ـ التمهيد للاستقلال الطولونى ـ الاستقلال الطولونى خاتمة جهاد قرون ستة أو تزيد .

امتازت هذه الأمة الجديدة بكل ما تتصف به الأمة المتحدة ذات الشخصية الفعالة. وأصبح لها من صفات القومية المكتملة فى السياسة والفن والأدب ما تتميز به عن غيرها من الأمم التى كانت تكون جسم الدولة الاسلامية الكبرى .

ولا تعوزنا الأدلة على نضوج الأمة المصرية الاسلامية غداة الفتح — وهو النضوج الذى يتمثل فى ذلك المظهر السياسى الذى ظهرت به مصر مشتركة فى احداث العالم الاسلامى اشتراكا قوياً فعالا .

ولم يكن بد لأمة جديده ناهضة تريد الظهور على مسرح العالم السياسى

بمظهر الوحدة ، من اتفاق يقضى على كل خلاف تكون العنصرية سبب مثاره . ويسوق التاريخ أمثلة عديدة على تسامح العرب مع القبط منذ اللحظة الأولى ، فقد احتفظ عمرو « بمناس » على رأس الادارة العربية ، كما عين « شنوده » و « فيلكسنوس » حاكمين على الريف والفيوم ، وكان ثلاثتهم على أتم وفاق مع المسلمين ، بذلوا جهدهم فى مساعدة الحكومة العربية على تحصيل الضرائب متوخين العدالة التى كانت مزية المسلمين الكبرى بعد حكم الروم الجائر .

واختلط الفاتحون العرب فى الريف والقرى بأهل البلاد ، وغدت فتيات « سنتيس » بالدلتا أمهات لكثير من مشهورى المسلمين لقبولهن الزواج من الجند الاعراب . وكان ذلك الاختلاط يقع عادة فى موسم الفيضان حين تخضر الأرض وتكثر الخيرات ، ثم لا يلبث الاعراب أن يعودوا إلى فسطاطهم — وذلك وفقاً لنصيحة القائد الأعلى(١) . ومن مأثور قوله : « تمتعوا فى ريفكم بما طاب لكم ، فاذا يبس العود ، وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض اللبن ، وصوح البقل ، وانقطع الورد من الشجر ، فحى إلى فسطاطكم على بركة الله »

ومن أدلة الألفة المبكرة ما يذكرونه عن احسان المسلمين إلى حلفائهم من القبط اليعقوبيين دون سواهم من اتباع الكنيسة الأرثوذكسية . ومن أمثلة ذلك اباحة والى مصر مسلمة بناء كنيسة قبطية خلف قنطرة الفسطاط ، ومن مظاهره أيضاً أقامة الوالى عبد العزيز بن مروان بالدير القبطى فى « طمويه » عندما اعتلت صحته وأصيب بداء الأسد وأشير عليه

---

(١) عمرو بن العاص

بهجر ممفيس إلى مكان أكثر جفافاً : وكان ذلك المقام مقدمة لانشائه حلوان واتخاذه منها مصحاً ودار ملك . وعلى الرغم من ذلك جاء ولاةٌ رأوا فى التسامح تطرفاً لا يجوز صدوره عن مسلم ، فاشتدوا وذهبوا فى التضييق على القبط إلى حد حرمانهم حرية الملبس وحرية التصرف وحُطمت صور المسيحيين فى الكنائس ، واقترنت هذه الحركة بحركة طيبة جاءت نتيجة مباشرة لها ، هى حركة « تعريب الدواوين » فى أواخر المائة الأولى للهجرة ، فقد بدىء باحلال العربية محل القبطية وأصبح لا بد للقبط ، إن هم أرادوا البقاء فى خدمة الادارة العربية ، من حذق العربية، لغة الفاتحين، للتدوين بها . وكانت تلك مرحلة هامة من مراحل تعريب البلاد — وتابعوا بها خدماتهم للمسلمين وأخذوا يتعاملون بها فى أمورهم الخاصة ، وأدركت العربية عباداتهم ، فغزت الكنائس وصحبها الخط العربى فنسخ به الانجيل ، وتداوله القبط فى معاملاتهم اليومية — وهكذا ذهب القبط فى استعرابهم إلى أقصى الحدود ، وكانوا فى ذلك يسايرون العرب؛ وهم فى هذه المسايرة يأخذون بالطفرة ، لأنهم كانوا يبتغون الاندماج فى الكتلة المسلمة فى سرعة الراغب فى الامتزاج ، تحدوهم المنفعة ، أو يدفعهم عامل من عوامل المصلحة الشخصية .

وانتهت ثورات القبط فى الحوف الشرقى وفى غيره من مناطق الدلتا كسخا وسمنود وغيرهما من معاقل القبط بالتفاهم على المصلحة المشتركة . وتزوج الأعراب بكثير من نساء القبط؛ وكان لذلك التصاهر أثره الطيب فى الامتزاج النهائى . ولم يبق هناك من فارق بين القبطى والمسلم إلا فارق الدين — أما الدم والجنس فقد ثبت أنهما اشتراك وامتزاج ، وأما من حيث

اللغة فقد سادت العربية وساد معها الخط الذي كتبت به ، ونشأت للقبط عادات مقتبسة من العادات العربية ، وتحتم على الفريقين بحكم هذا الاتصال التعاون والتساند ، يتخذ كل من زميله عوناً على قضاء الحوائج اليومية ومطاليب الحياة المختلفة .

* * *

تكونت على مرّ القرون الهجرية الثلاثة الأولى أمةٌ مصرية عربية اسلامية متحدة الغايات ، لها كيان سياسى ظاهر ، ولها شخصية واضحة فى الدولة الاسلامية الكبرى، تؤثر فيها تأثيراً ايجابياً وتشترك فى أحداثها اشتراكا فعلياً . وكان من جراء ذلك أحداث جسام سوف نأتى على ذكرها موجزين .

والواقع أنه رغم اختلاف الدماء فى هذه الأمة الجديدة ، يحق القول بأن هذا الشعب الذى تم تكونه فى مدى قرون ثلاثة أو ما يقرب من ذلك، شعب مصرى اسلامى لا يصح التشكك فى مصريته ، لمجرد أن به دماء مختلطة ، فنقاوة الدماء فى شعب من الشعوب غير ممكنة ، لأن الشعوب الانسانية لا تبقى متباعدة ، فبين أمم الأرض المختلفة فى كل زمان وكل مكان امتزاج دائم لا ينتهى ، امتزاج لا يكاد يترك بالعالم أمة خالصة الدم — فالشعب الفرنسى خليط من الغاليين والفرنجة والانجليز مزيج من السكسونيين والكلتيين . ولم يكن ذلك الاختلاط فى يوم من الأيام عائقاً فى سبيل الوحدة أو حائلا دون بلوغ الأغراض القومية ، والفضل فى ذلك يرجع بلا شك إلى الوقت والبيئة ، فمرور الوقت يسمح بالتقارب والتعارف والتآلف ، والبيئة تؤثر على الطبائع المختلفة ، فتجعل منها طبيعة واحدة ، أو هى بعبارة أخرى « تأقلم » هذه الطبائع ، وتؤلف بينها وبين المكان ، وتخلق ذلك

الانسجام الأبدى، وتوجد ذلك الرباط المقدس الذى يربط الناس بأوطانهم ربطاً لا انفكاك له .

وفق هذا الناموس العمرانى تكون الشعب المصرى الاسلامى — وكان الفتح العربى وهجرة البطون العربية ونزولها بمصر واختلاطها بالمصريين اختلاط مصاهرة، بمثابة تلقيح لامة عريقة فى القدم بامة اخرى عهدها بالبدواة قريب(١).

ونحن نلحظ فى هذا الامتزاج الذى تم فى مدى قرون ثلاثة تقريبا ظاهرةً جلية هى دوام اتصال هذا الشعب الناشىء ببلاد العرب ، مشتركا فى احداثها اشتراكا كما يتبين فى «مقتل عثمان» حيث تواطأ القتلة(٢) على الحدث الخطير فى مصر دون غيرها من البلاد الاسلامية . وآزرت مصر «عليًا» فى خلافه مع «معاوية» ، وكانت (مصر) تحتل فى ذهن معاوية مكانةً ممتازة ، وكانت له بها جهود كبيرة ترمى الى نشر نفوذه عليها ، وله فى ذلك اخبار مع «قيس بن سعد بن عبادة» الوالى على مصر من قبل على بن ابى طالب ، وفى هذه المحنة ظل هوى المصريين مع علىّ حتى استطاع معاوية ان يفتحها الفتح الثانى على يد عمرو بن العاص ، ويقتلَ محمد بن ابى بكر .

ولما حدثت الفتنة الثالثة وهى حرب عبد الله بن الزبير مع الأمويين ، وقفت مصر فى صف ابن الزبير واعترفت بخلافته .

وفى ذلك الحادث الكبير ألا وهو سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية فى أعقابها ، نجد المصريين يشايعون بنى العباس ، فيُقتَل «مروان بن محمد» آخر خلفاء بنى امية فى ديارهم ، ويدخل العباسيون مصر بدون حرب ، ويُستقبلون فيها استقبالا حسنا .

---

(١) مقال للاستاذ محمد فريد ابو حديد فى صحيفة مدرسة فؤاد الأول الثانوية

(٢) محمد بن حذيفة ومحمد بن ابى بكر .

وفى خلافة المنصور العباسى حدثت الفتنة المعروفة التى أضرم نارهـا «العلويون» فى الحجاز بقيادة «النفس الزكية»، وفيها ينضم المصريون الى مثيرى الفتنة، فيأمر الخليفة المنصور بقطع «الميرة» من مصر الى الحجـاز، وردم الخليج الموصل الى القلزم .

وفى الخلاف الذى شجر بين الأمين والمأمون، وقف المصريون الى جانب المأمون وخلعوا الأمين .

وهكذا كانت مصر دائمة الاتصال بالأحداث السياسية الخارجية، تساهم فيها مساهمة ذات بال — وان قلنا مصر، فانما نقصد العرب فيها والمستعربين دون بقية من القبط الذين بقوا فى معزل عن الشعب الجديد .

وكان اتصالها باحداث العالم الاسلامى عامة دليلا على حيويتها ويقظتها وشعورها بشخصيتها . ولا مراء فى انه كان هناك رأى عام يتخذ لنفسه فى الأمور الاسلامية العامة قراره الخـاص، ويدأب على تنفيذه جاهدا، هو رأى أمة متكاملة الصفات .

* * *

ومن دلائل الحيوية فى الشعب الجديد، ما كان يقوم به العرب والقبط معا من آن لآخر من الثورة على نظام الخراج فى العصر العباسى، والواقع ان اشتراك الفريقين فى التبرم بأمر من الأمور العامة، لهو الدليل القوى على اندماج العنصرين واشتراكهما فى الأرزاء والمصالح . ومن ذلك ماحدث من ثوران العرب والقبط عام ٢١٦ للهجرة حين اتى المعتصم موفدا لقمع الثورة من قِبَلِ المأمون، وفى عام ٢١٧ للهجرة حين اتى المأمون بنفسه وقضى على تلك الثورة المشتركة . وكانت رحلة المأمون الى مصر قضاء على كل ما كان بها

من فتن ، وآخر مرحلة من مراحل المزج بين عنصرى الامة ، بل وآخر ما كان ينشأ بين العرب بعضهم وبعض بسبب العصبية من خلاف — اذ لا نكادنسمع بعدذلك عن ثورة يقوم بها القبط على الحكم العربى ، أوعن ايام يتشاحن فيها العرب كأيامهم الاولى . ويتصف القرن الثالث الهجرى فى مصر بأنه القرن الذى تم فيه الامتزاج بين العرب والمصريين ، واخلد فيه كل من الفريقين الى الحياة الهادئة . وفى هذا القرن ذهبت عن العرب صفة التميز واسقطوا من ديوان العطاء — حرمهم من ذلك الولاة العباسيون الذين آثروا الاتراك على العرب ، وكان آخر الولاة العرب بمصر « عنبسة بن اسحق الضبى » وبزاول ولايته انتهت تلك المنزلة السامية التى كانت للعرب فى مصر ، وظهر على اثر ذلك شعب مصري اسلامى ، لا اثر فيه لسيادة عنصر على آخر ، اللهم ما كان من سيادة الترك الولاة الذين كانوا يمثلون السلطان العباسى — وكان ذلك آخر العهد بفوارق الجنس وفوارق الطبقات ، واول العهد بظهور الامة المصرية الاسلامية .

* * *

ومما يُستدل به على نضوج الفكر المصري فى تلك الفترة من الزمن وادراكه قيمة نفسه ، تكوّن «رأى عام» يشترك فى الأحداث الخارجية ، ويدلى فيها برأى ، ويعبر عن سخطه على امر من الامور الداخلية بالثورة .

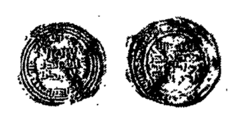
وتظهر فى هذا العهد فكرة الحكم المنحصر فى أسرة ، وهى فكرة تدل على نضوج قومى كبير بلغته مصر قبل العصر الطولونى . وقد مكّن ذلك النضوج القومى للوالى القوى الشكيمة من ان يؤثر فى الرأى العام ، فيذكر صاحب كتاب القضاة والولاة ان السرى بن الحكم ولى باجماع جند مصر على صلاتها وخراجها ، ثم يعزل ويولى ثانية سنة (٢٠١ / ٢٠٥ هـ) ثم يولى ابنه «أبو

نصر بن السرى » (٢٠٥ / ٢٠٦ هـ) ثم يولى « عبد الله بن السرى (سنة ٢٠٦ / ٢١١ هـ) أى انه فيما بين عامى ٢٠١ و ٢١١ للهجرة كانت بمصر « دولة » السرى بن الحكم وأولاده تحكم البلاد حكما استقلاليا خارجا عن سلطان الخليفة العباسى — وتلك أول محاولة للانفصال عن السلطة العليا بعد نضال طويل دام اكثر من ستة قرون .

* * *

وهكذا كانت فكرة القومية قد بلغت كمالها قبل ابن طولون — بظهور رجل مهد للنهضة الطولونية الاستقلالية — هو « السرى بن الحكم » الذى انتزع مصر من الوالى العباسى ، واعقبه ابنه فى هذا المضمار ، وشايعه المصريون فى نزوعه الى الاستقلال والتحرر .

وقيام السرى بن الحكم وابناه من بعده بهذه الحركة الانفصالية ، يؤيد ما نريد أن نذهب اليه من ان الاستقلال الذى حققه « ابن طولون » كان وليد جهاد قرون ستة أو تزيد ، ناضل فيها المصريون عن حريتهم المسلوبة ، بأسلوبهم الخاص الذى تحلوا فيه بالجلد والصبر والاناة ، وخرجوا من نضالهم آخر الامر بالمطلب الاسمى — وهو التحرر من سلطان الأجنبى .



المظهر السياسى — ٢

البطل فى شخص ابن طولون

ليس الاستقلال الطولونى طفرة سياسية - إن هو إلا نضوح قومى - شعب مصرى ذو وجود مستقل - فكرة الحكم المنحصر فى أسرة ، والتعويل على « الرأى العام » ، ودلالتهما على النضوج - نظام اقطاع مصر لوال بحكت فى بغداد يساعد على الاستقلال بها - شخصية البطل قوية يقظة نهازة للفرص - قبض اليد عن الخليفة أول مظهر من مظاهر الاستقلال - امتلاك الشام يحقق السيادة الخارجية - عود إلى مجد الفراعنة بعد قرون عدة - الاستقلال عن الخلافة واعتراف الخليفة بالأمر الواقع - ليس بضائر شعباً أن يكون حكامه من الأجانب ولا ينقص ذلك من حقيقة استقلاله فى العرف الدولى - طور جديد من أطوار الوطنية المصرية — يستعرب فيه المصريون أكثر مما يتمصر الأعراب - الاستقلال عند المصريين غاية لا تعدلها غاية - ابن الخلنجى يحكم مصر مستقلا بها فترة بعد زوال حكم الطولونيين - الطولونيون يحققون لمصر مزايا الدولة كما تفهمها الأجيال الحديثة - تبادل النفع بين الحاكم والمحكوم - شىء لم تتمتع به مصر منذ انقضاء عهد الفراعنة - تعلق الناس بالحكم الطولونى ومغزى ذلك التعلق .

يذهب بعض المؤرخين ومنهم الدكتور « فيليب حتى » إلى أن مصر لم تتمتع منذ انقضاء عهد الفراعنة بحكم استقلالى قومى ، إلا فى زمن الفاطميين — أما الحكم الطولونى والحكم الأخشيدى ، فلا يرى فيهما حكماً يتخذ من القومية سنداً له — وإنما يرى فيهما حكماً يقوم على قوة الشخصية ، ويستفيد من انحلال الخلافة العباسية فى بغداد .

وقد لا تكون بنا حاجة بعد الآن إلى توضيح المراحل التى مرت بها مصر حتى أدركت العصر الطولونى ، وكلها مراحل نمو ونضوج وتطلع إلى الاستقلال ، تجلت آخر الأمر فى فكرة الحكم المنحصر فى أسرة ، تلك

الفكرة التى حققها « السرى بن الحكم » وأولاده من بعده حتى لم يعد هناك مجال لقول بأن الحكم الطولونى أو الحكم الأخشيدى كان «طفرة سياسية» زالت آثارها بزوال محدثيها ، فالعبرة فى موضوعنا ليست بشكل الحكومة طولونية كانت أو أخشيدية أو فاطمية — وأنما هى بالشعب الذى يقف من وراء هذه الحكومة أو تلك ، يسيغ ويكره ، ويقبل ويرفض ، ويشايع ويناهض ، وهو فى كل ما يصدر عنه مصرىُّ النزعة والمشاعر ، فطنٌ إلى الأفاعيل ، يرقب الحوادث ويتخذ فيها قراره الخاص ، ويتحلى بالأناة ، ويتحين الفرص لتحقيق أغراضه وإثبات وجوده المستقل .

وهذا الشعب المصرى الاسلامى الذى تم تكونه فى القرن الثالث الهجرى كانت له مثله فى الحياة ، وطرائقه فى العيش ، وأساليبه فى الفنون ، ومذاهبه فى الدين والأدب والثقافة .

* * *

ومنذ عام ٢٤٢ هـ - ٨٥٦ م أصبح ولاة مصر من الأتراك ، وكانت قد منحت البلاد قبل ذلك بعشرين عاماً لعدد من هؤلاء أقاموا فى بغداد ، وعينوا نواباً عنهم لحكمها .

ولقد كان انتقال البلاد من يد حكام من العرب الخلص إلى يد حكام من الترك نذير تلك الحركة التى دب دبيبها فى كل أنحاء الدولة الاسلامية تقريباً ، وانتهت فى أكثر من مكان بانتزاع الولاة للسلطة الزمنية من يد الخليفة العباسى — والجنوح إلى الاستقلال .

* * *

جاء ابن طولون الى مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ، فوجد على خراجها

« احمد بن المدبر » مطلق اليد فى ايرادها ، ينعم بأبهة دونها ابهة الوالى ، يتبعه حيث ذهب حراس من الجند الفرسان ، يبلغون المائة عدا ، يرتدون المناطق والأقبية الفارسية ، ويمسكون بمقارع على رأس كل منها مقمعة من فضة - وما لبث ابن طولون ان هبط مصر ، حتى بادر « ابن المدبر » بعشرة آلاف دينار يهديها اليه — ردها ابن طولون الى مهديها ، طالبا اليه ان يهبه الغلمان الحراس ، فعجب ابن المدبر من رجل يرفض المال ويستهدى الرجال ! ... ولكنه لم يسعه إلا إجابة ملتمسة ؛ وسرعان ما شعر ابن المدبر ، بعد ان تخلى لابن طولون عن غلمانه ، ان الأبهة التى كانت تحوطه قد فارقته ، فشكا امره الى الخليفة طالبا اليه خلع هذا الوالى ، ولكن الخليفة لم يأبه لشكوى ابن المدبر — ولقى ابن طولون من المصاعب السياسية غير منافسة عامل الخراج « ابن المدبر » ، ثورة قام بها « الغلويون » غربى الاسكندرية فى السنة الثانية من ولايته ، كما اشهرت طائفة منهم السيف على حكمه فى « أسنا » ، ولكن عزم ابن طولون وقوة شكيمته ، قضيا على هاتين الحركتين فى مهدهما ، وطورد القائمون بهما الى الواحات(١) .

واستطاع احمد بن طولون الخلاص من منافسه « ابن المدبر » وذلك حين ورده كتاب الخليفة « المعتمد » يستحثه فى جمع الاموال ، فكتب اليه ابن طولون يقول « لست اطيق ذلك والخراج فى يد غيرى »(٢) فارسل اليه الخليفة يقلده خراج مصر وولاية الثغور الشامية . وعندئذ أقر ابن طولون من قبله « أبا أيوب بن محمد بن شريح » على الخراج ، وعقد « لطخشى بن بلبرد » على الثغور ، وصار بذلك امر البلاد كلها بيده ، وقويت شوكته وعظم أمره .

---

(١) النجوم الزاهرة الجزء الثالث ص ٧

(٢) « « « ص ١٣

ولعل ذلك كان أول العهد بالاستقلال الفعلي — فقد انطلقت يد ابن طولون بعد ذلك تتصرف فى شئون البلاد — يعين عامل الخراج ، ويولى من قبله حاكم الثغور ، بعد أن كان ذلك من شأن الخليفة وحده . ولما انتهى امر مصر الى ابن طولون ، وكثر جنده وحاشيته ، بنى لهم مدينة « القطائع » على جبل يشكر ، وشيد القصر والميدان والمسجد المعروف والعين(١) والبيمارستان ، وحصن الجزيرة(٢) ، واكثر من العطايا يبعث بها الى الخليفة « المعتمد » . وعظمت صدقاته(٣) ، وزاد أنفاقه على مماليكه وعسكره وتضاعفت صلاته للعلماء ، وكان ذلك سبباً فى قبض يده عن الخليفة بعد بسطها ، فلم يستطع أن يرسل شيئاً الى الخليفة « الموفق » ، فحنق عليه الخليفة واراد الخلاص منه بعزله عن ولاية مصر ، ولكنه عجز عن ذلك ، اذ حالت قلة المال لديه دون انفاذ عزمه — وانتهز ابن طولون فرصة موت « أماجور » والى الشام ، وساق اليها جيوشه ، فسلمت دمشق ، واتى اليه وجوه البلاد يقدمون فروض الطاعة ، وبفتح الشام تحققت لمصر « السيادة الخارجية » التى كانت قد فقدتها منذ انتهت ايام الفراعنة الذين نشروا لواء مصر على ربوع الشام وضفاف الفرات ، وبلغت سطوة ابن طولون ما كانت قد بلغته من قبل سطوة « طوطميس » فكان له فى « قريقساء » على الفرات ، حامية حربية وضع عليها ابن صفوان — وتطلع ابن طولون الى الاراضى المقدسة يبغى الاستيلاء على مكة ، ولكنه عجز

---

(١) وهى السقاية أو قناطر ابن طولون الآخذة من بركة الحبش بالقرب من بساتين الوزير ، جنوبى القاهرة .

(٢) جزيرة الروضة

(٣) انظر صدقات ابن طولون (النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٧)

عن ذلك ، ولُعِن فى المسجد الحرام . وضايقه هذا الفشل السياسى وحفزه على إنفاذ سياسته التى وضعها منذ اللحظة الاولى ، وهى سياسة الانفصال بهذا الشعب المصرى الناضج عن جسم الخلافة العباسية ، فقطع اسم الموفق نائب الخليفة من الخطبة ، وسك العملة باسمه ، وخرج بذلك خروجا تاما عن طاعة الخليفة(١) .

وذهب ابن طولون فى خروجه على الخلافة الى حد أن جمع مجلسا من القضاة والفقهاء فى دمشق اعلن فيه خلع الموفق ، وحرمانه من الخلافة بحجة سوء معاملته لاخيه الخليفة المعتمد ؛ وخرج على اجماع هؤلاء الفقهاء «القاضى بكار» فسجنه ، وأطال سجنه حتى هزل ومات . ولم يعبأ ابن طولون — وهو يرغب رغبته القوية فى الاستقلال بمصر بما صب عليه من اللعنات على منابر المساجد فى أرجاء الدولة الاسلامية .

* * *

وانتصرت جيوش مصر على الروم قرب طرسوس سنة ٨٨٢م ، وتأثرت صحة الرجل اثناء هذه الغزوة ضد الروم ، ومرض ومات على أثرها — وخلفه فى حكم البلاد ابنه «أبو الجيش خمارويه» الذى ثبته الخليفة فى ولاية مصر والشام ومنطقة الثغور على حدود الروم ثلاثين سنة . وحسنت العلائق بين عاهل مصر والخليفة — فزوج الأول ابنته «قطر الندى» للخليفة فى موكب عرس لم يسمع الناس بمثله فى قديم الزمن أو حديثه . وزادت علاقة مصر المستقلة بالخلافة توطدا بهذه المصاهرة .

وجاء من بعد خمارويه ابنه «ابو العساكر جيش» وكان مستهترا ، لم يفطن

(١) يعد ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ونقش اسمه على العملة دليل الخضوع الرسمى للسلطة العليا — وحذفهما عقوقا وانتقاضا على هذة السلطة .

الى المكانة السامية التى أوجدها أبوه وجده لمصر فى الدولة الاسلامية الكبرى . وفى زمنه فقدت مصر حكم الشام ، وهددتها غارات القرامطة . وانتهز الخليفة حالة الاضطراب والفوضى التى وقعت مصر فيها بسبب ضعف هذا الحاكم ، وأرسل جيشاً قضى على القرامطة بالشام قبل أن يغزو جيشهم مصر ، ودخلها موفدا من قِبل الخليفة العباسى القائدُ «محمد بن سليمان» الذى قضى على أواخر الطولونيين ، ودخل الفسطاط وأحرق القطائع وأباد كل ما وجد من آثار بنى طولون . وعادت مصر إلى حكم الخلافة العباسية مدة ثلاثين سنة (٢٩٢/٣٢٣ ﻫ) إلى أن قامت بها الدولة الأخشيدية .

* * *

ومما تجدر ملاحظته أن الأسرة الطولونية استطاعت لأول مرة فى تاريخ مصر الاسلامية أن تحكم البلاد حكماً وراثياً مستقلا .

كما نلاحظ أن هذه الدولة عملت جاهدة على رفع مستوي الحياة والمدنية بما أضافت من منشآت لم يكن لمصر الاسلامية بها عهد قبلها .

وتعلق المصريون بهذه الدولة تعلقاً تبين فى أسفهم على زوال حكمها ورثائه(١) .

* * *

تُوّجت حركة النضوج القومى فى منتصف القرن الثالث الهجرى بالاستقلال ، وليس يعيب شعباً من الشعوب أن يكون حكامه من أصل أجنبى ، وليس ينقص ذلك من قيمة استقلاله فى العرف العام ، فمن الدول الأوروبية

(١) انظر ماقيل فى زوال هذه الدولة من اشعار — النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٢ / ٥٤

العريقة فى الاستقلال، ومنها انجلترا من نجد بيت الملك فيه موصولا بعنصر أجنبي — دون أن يكون فى ذلك ما يشوب صفة الاستقلال فى اعتبار العرف أو فى اعتبار القانون الدولى — فاستقلال الدولة لا يزول بهذا ، وإنما يزول بتبعيتها لدولة أجنبية ، وليس يكفى لاعتبار أمة من الأمم غير مستقلة أن يكون حكامها من أصل أجنبى ، وإنما تكتب عليها الذلة وتفقد كل معانى الاستقلال إذا رضيت حكم الأجنبى طائعة أو أسلست له القياد مختارة ، وذلك ما لم تفعله مصر فى أشد عصورها محنة وأكثرها أذى واعتسافاً .

والحقيقة أن البلاد بدأت بالفتح الاسلامى تدخل فى طور جديد من أطوار وطنيتها، أخذت فيه تمعن فى الاستعراب وتأخذ بأسبابه على خلاف ما كان ينتظر من تمصر العرب ونزولهم إلى معترك الحياة واندماجهم فى أهل البلاد — ومن عجب ألا يفعل العرب ذلك إلا بعد أن يكثر اسلام القبط ويتم استعرابهم ، وعندما يهب الفريقان متكاتفين من أجل غاية واحدة هى الخلاص من جور بنى العباس — وقد كان هذا غداة ذلك الانصهار الذى تم بين الفريقين ، فكوّن منهما أمة واحدة ، متحدة الغايات ، مشتركة المصالح .

ولعل هذه الظاهرة العكسية التى نشاهدها فى استعراب المصريين دون تمصر الأعراب ، راجعة إلى بقاء العرب حقبة من الزمن بعيدين عن الاندماج الاجتماعى بالعنصر المصرى — من ناحية، وإلى أن الاسلام استهوى المصريين بما فيه من مزايا التسامح والعدل والمساواة — من ناحية أخرى ، تلك المزايا التى جذبت اليه النفوس العصية ، وأزلتها عن معتقدها وعاداتها وتقاليدها ، وأسرعت بها نحو الدين الحق ، ولسانه العربى المبين .

وسلخت مصر بعد سقوط الطولونيين ثلاثين عاماً فى حكم العباسيين ، كانت فى أثنائها مسرحاً للفوضى والاضطراب الشديدين ، بلغ فى خلالها حنين المصريين إلى الحكم المستقل درجة عظمى ، وذَكرَ الناس بالخير عهدَ الطولوليين ، لأنه كان عهد حكم ذاتى محبّب إلى النفوس — ذلك الحكم الذى ارتقبه المصريون دهوراً طويلة حتى ظفروا به أخيراً على يد ابن طولون؛ فلمّا ظفروا به — عزّ عليهم أن يزول ، لأن بهم شغفاً ونزوعاً بالغين إلى الحياة الاستقلالية من قديم. وليس أدل على ذلك من قيام المصريين نافرين من الحكم العباسى ، نازعين إلى حياة الاستقلال من جديد : إذ يقوم «محمد بن على الخلنجى» سنة ٢٩٢ للهجرة — فيجمع حوله نفرا من المصريين فى فلسطين ، ويدعو إلى الخطبة باسم الطولونيين ، ويغير على مصر ويحكمها باسم هؤلاء ثمانية أشهر — وقد بلغ من اغتباط المصريين بحركة ابن الخلنجى أن « تخلّقوا بالزعفران ، وخلّقوا وجه دابّته ، ووجوه دوابّ أصحابه فرحاً به . »(١)

حكم محمد بن الخلنجى مصر حكماً يعتمد على رغبة المصريين فى العودة إلى عهد بنى طولون ، ولكنه كان حكماً جائراً ، إذ كان فى الواقع إنتقاماً لبنى طولون من أعدائهم ، وثأرا لما أنزل بهم وبأشياعهم «محمد بن سليمان العباسى» من عنت وتشريد .

وقضى على هذا الثائر الخليفة العباسى بجيش أرسله إلى مصر ، على رأسه « فاتك أبو شجاع » الذى أسر ابن الخلنجى وحمله إلى بغداد حيث نُكل به . وعادت مصر إلى حكم العباسيين يحكمها باسمهم « عيسى النوشرى » حتى أتيح لها أن تنهض من جديد على يد محمد بن طُغج الأخشيد .

* * *

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٦٧ وما بعدها

ويلمس الباحث فى تاريخ الأسرة الطولونيه مزايا « الدولة » كما تفهمها الأجيال الحديثة ، فقد حققت تلك الدولة قسطاً طيباً من السعادة المادية والأدبية للأفراد ، وأعلت مكانة مصر بين أترابها من الأمم الاسلامية ، وأقامت العدل بين الناس ، وعُنيت بشئون الصحة ، وأعانت الضعفاء ، ونظمت الأعمال العامة ، وساعدت على ترقية الفنون والعلوم . وليس من شك فى أن ذلك الثراء الذى أصابته مصر فى عصر ابن طولون ، والذى انعكس على مرافق الدولة جميعاً ، فكان من آثاره بناءُ العمائر الضخمة والقناطر وتحسين أحوال الطبقة الزراعة وتشجيعها على امتلاك الأرض وتأمين المِلْكية — لم يكن مرجعه ابتزاز الأموال بغياً ، وإنما كان مرجعه تحسين الزراعة المصرية بحيث أصبحت تدرّ الأموال على مزاوليها . ولم يلجأ ابن طولون إلى ما لجأ اليه سلفه « ابن المدبر » من الضغط على الأهلين فى جمع الضرائب ، وإنما فطن فى ذلك إلى أنه يعامل رعيةً لها عليه من الحقوق بقدر ماعليهامن الواجبات. وقد ساعده قطع الجزية على التعمير والانشاءوغير ذلك من وجوه المصلحة العامة ، ومبادلة الأهلين نفعاً بنفع — هؤلاء يخدمون مرافق الدولة ، وهو فى مقابل ذلك يرعى شئونهم . وكان ذلك فى ذاته مظهراً من مظاهر الاستقلال ، فلم تعُد مصر تغِلُّ ليشبعَ الأجانب الحاكمون ، وإنما غدت على يد هذا الحاكم المستنير تنتج فيجنى أبناؤها ثمار ما تنتج ، وينعمون بعد حرمان القرون ، بخير ما يهب غرينُ النيل وماؤه العذب الفرات .

ولا مِراء فى أن دولة بنى طولون كانت دولة وطنية مصرية، أسف الناس على زوال ملكها ، وفاض أسفهم على ألسنة الشعراء شعراً يندب الملك الضائع .

وفى ذلك يقول « اسماعيل بن أبى هاشم » شائداً بذكرهم : —

كانوا ليوثاً لا يرامُ حماهمُ   فى كلّ ملحمةٍ وكلّ هياجِ [١]
فانظرْ إلى آثارهم تلقى لهم   علماً بكل ثنيّة وكل فجاجِ

ويقول « سعيد القاص » فى رثاء الدولة :—

وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسىً   يبيت على جمرٍ ويُضحى على جمرِ [٢]
تتابعُ أحداثٍ تحيّفن صبره   وغدرٌ من الأيام والدهرُ ذو غدرِ
أصاب على رغم الأنوف وجدعها   ذوى الدّين والدنيا بقاصمة الظهرِ
طوى زينةَ الدّنيا ومصباحَ أهلها   بفقد «بنى طولون» والأنجم الزّهرِ

وقد أكثر الشعراء من ذكر مآثر الدولة والاشادة بما خلّفت من آثار — ومن هؤلاء « أحمد بن اسحق » الذى يقول فى (الميدان) : —

وكأن الميدان ثكلى أصيبتْ   بحبيبٍ صباحَ ليلةَ عُرسِ [٣]
تتغشّى الرّياحُ منه مُحَلّا [٤]   كان للصّون فى سُتُور الدّمقسِ

وفى هذا دليل على تعلق المصريين بالطولونيين تعلقاً هو بلا شك نتيجة لما نعموا به فى عهد هذه الأسرة من الرخاء وراحة البال وعلوّ المنزلة فى العالم الاسلامى .

ظهرت مصر فى حكم الطولونيين أمةً مستقلة نافس حكامها خلفاءَ بغـــداد ؛ وعلت مكانة « القطائع » حتى سامت مكانة « بغداد » مقر

---

(١) النجوم الزاهرة الجزء الثالث ص ١٤٠ طبعة دار الكتب المصرية
(٢) « « « « ١٤١ « « « «
(٣) « « « « ١٤٢ « « « «
(٤) اسم مفعول من حلأ الشىء منعه وصانه (عن النجوم الزاهرة ج ٣ هامش ص ١٤٢)

الخلافة ، وارتفع مستوى الحياة المصرية وبرزت لمصر الاسلامية حضارة جديدة آخذة من الاسلام بنصيب ومن الحضارة المصرية فى صورها المتأخرة بنصيب آخر .

وعز على الخلافة العباسية أن ترى فى مصر أمة متميزة الصفات واضحة المعالم، عظيمة المنشآت ، فما أن سقطت دولة ابن طولون ودخل محمد بن سليمان القطائع ، حتى أمعن جند العباسيين فى آثار بنى طولون هدماً وتخريباً ، ولم يدع هؤلاء من «القطائع» بيتاً إلا سوّوه بالأرض، اللهم إلا المسجد الجامع. — وعلى أنقاض هذه الأطلال الدارسة بنيت « العسكر » وتبعت أهميتها السياسية والعمرانية أحداث السياسة ، فلم تلبث أن زالت تلك الأهمية لمجرد قيام حكم الفاطميين بهذه الديار .

* * *

ورجعت مصر إلى حكم الخلفاء العباسيين فترة من الزمن أشرفت على الثلاثين سنة ، كانت أمورها فى أبانها فوضى وانتقاضاً على حكم الخلفاء . ولا غرو ، فقد ألف المصريون على يد الطولونيين حياة الاستقلال ، وتمتعوا بمزايا الشخصيّة الخاصة. والحق أن الخلفاء عجزوا عن بسط سلطانهم عليها ، ووقعت الحكومة فى أيدى الجند الأتراك ، وأرسلت الجيوش من بغداد لتخليص مصر من الثورات الداخلية ومن خطر الغزو الخارجى[١] . — ولكن هؤلاء الجند الذين وفدوا على مصر أملوا ارادتهم على الولاة ، وتسلطوا على مرافق البلاد ، فأصبح قائدُ الجيش صاحب المكانة الأولى فى مصر ، يليه صاحب الخراج من المادرائيين (وهم أسرة أشرفت طوال

(١) بسبب قيام الفاطميين فى شمال أفريقية

هذه المدة المضطربة على شئون الخراج) — وكانت لهم السيطرة على كل شىء، اللهم إلا السلطة العليا التى تركزت فى تلك الحقبة فى يد القواد الأتراك. وفى ظل هذه « الدكتاتورية » الحربية ، قلّت أهمية الولاة ، ومن دونهم من عمال الدولة المنتشرين فى أنحاء البلاد .

ولم تلبث تلك الحال طويلا — إذ عاود البلاد شعور قوى بالاستقلال ، ونزوع إلى الانفصال عن الخلافة التى ساءت أحوالها وبلغت من التدهور حدًّا انعدم فيه سلطان الخليفة أو كاد حين غلبه الجند الأتراك على أمره .

وبدأت مصر مرة أخرى فى تاريخ الشرق الأدنى حركة انفصال انتهت هذه المرة بتمزيق الدولة العباسية ، — إذ حكم « الحمدانيون » أعلى الجزيرة والشام و « بنو بويه » فارس و «السامانيون» ما وراء النهر — فى حين كان يحكم مصر حكماً استقلالياً على غرار الحكم الطولونى «ابن طغج الأخشيد» . وقامت فى الغرب الاسلامى دول نافست الخلافة العباسية منافسة شديدة ، هى دولة عبدالرحمن الناصر فى الأندلس والدولة الفاطمية فى شمال أفريقية .

* * *

وأبلغ « ابن طغج الأخشيد » مكانة مصر إلى شبه ما كانت عليه فى حكم ابن طولون ، فقاتل «ابن رائق» دفاعاً عن الشام ، ثم هادنه واقتسم معه الحكم فيها ، فحقق ذلك من جديد سيادة مصر الخارجية على تلك الجهات — وهى السيادة التى أعادها سلفه «احمد بن طولون» إلى الوجود ، بعد أجيال طويلة . — وما لبثت مصر بعد موت « ابن رائق » أن فرضت سيادتها على جميع الشام . وأضاف الخليفة راضياً إلى أملاك « الأخشيد » حكم مكة والمدينة وجعل مصر وراثية فى أولاده. والخليفة فى هذا المنح وذلك الرضا لا يمارس إلا سلطة رمزية ليس غير .

وتوطد استقلال مصر فى عهد «الأخشيد» وتمتعت البلاد بمكانة سياسية سامية، نعمت فيها بخيرات سوريا وفلسطين فضلا عن خيراتها الخاصة .

ثم آل حكم البلاد إلى ابنيه ، فلم يكن لهما من السطوة ما كان لأبيهما ، وحكم البلاد باسمهما «كافور الأخشيد» وفى عهده زادت رقعة الدولة مساحة حتى شارفت حدود الأناضول .

وما لبث أن تولى «كافور» حكم مصر بموافقة من الخليفة ، ولم تكن موافقة الخليفة إلا «تبريكا» للأمر الواقع ، إذ كان اختيار كافور للحكم برأى «الأعيان والجند» . وبدأت مصر بهذه المبايعة تقليداً جديداً فى تاريخها القومى ، إذ أصبح اختيار الحاكم مرهوناً بارادة المصريين دون سواهم — لا دخل فى ذلك لسلطان الخليفة . وما أن توفى كافور حتى حسم رجال البلاط أمرهم ، وانتخبوا من تلقاء أنفسهم والياً عليهم من بنى الأخشيد ، كما انتخبوا ولى عهد له منهم .

* * *

بهذا ينتهى العصر الذى أردناه بالبحث ، وهو عصر تكون الأمة المصرية الاسلامية — ذلك العصر الذى بدأ بفتح العرب لمصر وانتهى بالدولة الأخشيدية ، — فكأن كل ما سبق العهد الفاطمى من العصور ، ليس — فى اعتقادنا — إلا تكونا واكتمالا لهذه القومية الجديدة التى ميزت فى مصر شعباً اسلامياً قوياً ، لم يلبث أن تزعم العالم الاسلامى فى أخطر المواقف وأروعها — والواقع أن الفاطميين لم يختاروا مصر مكاناً يناوئون منه الخلافة العباسية، إلا لما أنسوه فيها من نزوع إلى الاستقلال ، وكانت عيونهم بها — قبل أن يدركوها فاتحين ، قد صورت لهم اتحاد قلوب المصريين على كراهية الخلافة العباسية والرغبة فى التحرر والانفصال عنها .

المظهر السياسى — ٣

استطراد ...

استقلال الفاطميين بالبلاد — سيادة مصر الخارجية على عهدهم — أثرهم فى التاريخ القومى — علو مكانة مصر على يد صلاح الدين — جهاد الأيوبيين من أجل مصر والاسلام — زهاء عصر المماليك — حماية مصر والتراث الاسلامى من عادية التتار والصليبيين — الغزو التركى وأثره — عودة الروح القومية إلى الحياة — على بك الكبير — محمد على ينهض بالبلاد — الاستقلال عن الدولة العثمانية — الأسرة المحمدية العلوية ومتابعة النهوض وتدعيم الاستقلال .

وفيما يلى وصل سريع للحوادث :

١ — ولم يمض طويل زمن حتى تطلع الفاطميون فى شمال أفريقية إلى مصر ، يريدون أن يتخذوا منها موطناً لدعوتهم الشيعية ، قصد مناوأة الخلافة العباسية السنّية والقضاء عليها ؛ وقد تخيروا مصر موطناً لهذه الدعوة لتوسط مركزها وثرائها وجنوحها الدائم إلى الاستقلال والانسلاخ عن جسم الخلافة — فما أن فتح المعز مصر (٣٥٨ ﻫ/٩٦٩ م) ، حتى تمّ انفصال مصر عن الدولة العباسية ؛ ونافست «القاهرة» بغداد مقر الخلافة ، وازدهرت ، وعلت سمعتها فى العالم الاسلامى — وكادت تفوق «مدينة المنصور» رقياً وحضارة .

عنيت هذه الدولة الفاطمية ، كما عنى غيرها من الأسرات الحاكمة بشئون البلاد الداخلية ، وتابعت سياسة السلف من حيث السيادة الخارجية ، فقد كان لها جنوب الشام وبلاد النوبة والحجاز والمغرب — وغدت مصر على عهد الفاطميين قلباً للعالم الاسلامى ، واحتلت القاهرة مكانة تشبه مكانه بغداد السياسية ، إذ ظلت مركزاً لسلطان واسع الأرجاء حيناً من الدهر ، على نحو ما كانت بغداد ذاتها .

وضمن لمصر السيادة السياسية على الأقطار المجاورة أسطولها الحربى العظيم، وجيشها البرى الكبير .

وفى عهد هذه الدولة نمت العلائق السياسية الخارجية، وعقدت المعاهدات بين حكام مصر وملوك الروم، واليها يرجع الفضل فى مكافحة الصليبيين فى حملتهم الأولى على سوريا، وهى — وإن لم توفق فى اجلاء الصليبيين عن فلسطين والشام، إلا أنها استطاعت أن تحتفظ باستقلال مصر فى وجه هؤلاء .

ولهذه الدولة شأن بالغ فى تاريخ مصر — فلا تزال آثارها الاجتماعية باقية فى الحفلات الدينية والمواسم والأعياد، ويوم عاشوراء، ومولد النبى ومولد الحسين، وفتح الخليج، والحجْ وغير ذلك .

وامتازت دولة الفاطميين بتسامح دينى كبير ساعد على زيادة الاندماج بين عناصر الأمة، إذ لم يصبح للفارق الدينى على عهدها ذلك الاعتبار الذى كان له فى عصور مضت . وأدى ذلك بطبيعته إلى زيادة التعاون فى مرافق الحياة المختلفة، وظهر أثره فى عالم الفنون بوجه خاص .

ومن الظواهر التى يلحظها الباحث فى تاريخ هذه الدولة، تسامح عجيب مع العناصر المسيحية — اللهم إلا فى زمن الحاكم بأمر الله، وهو من الشذوذ بما نعلم — ونفورٌ مستحكم الأواصر بين الشيعة والسنيين .

اشتد الخلاف بين الشيعة والسنّيين وبعدت بينهما شقة الخلاف، وظلت الحرب بينهما سجالا، حتى استطاعت السنية أن تتغلب آخر الأمر على الشيعية، حيث كتب لها النجاح والتفوق على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب

* * *

٢ — وحكم صلاح الدين هذه الديار أول الأمر باسم «نور الدين محمود بن زنكى» الأتابكى (منذ ٥٦٧ھ)، ولم يلبث أن خلع عن نفسه سلطان سيده نور الدين،

وأخذ يوجه الجيوش إلى السودان وشمال أفريقية وبلاد العرب واليمن ؛ وفى الأخيرة نجح أخوه فى تأسيس دولة حكمت باليمن زمناً يقرب من نصف القرن .

وبموت نور الدين ، تطلع صلاح الدين إلى حكم الممالك الاسلامية جميعاً ، وتأسيس دولة واحدة كبرى — يقوى بها على مناهضة الصليبيين الذين ثقلت وطأتهم على الشرق الأدنى ، وهددوا الأملاك الاسلامية فيه بالزوال .

وانتهز صلاح الدين فرصة موت « نور الدين محمود » واستولى على دمشق ، ودان له أمراء المسلمين الذين اعترفوا طواعية بسيادة مصر على جميع الشام حتى تخوم العراق .

واتسعت رقعة الدولة المصرية فى عهده حتى انتظمت شمال العراق وبلاد الكرد — ولم تكن سيادة مصر قد مست هذه الأنحاء فى عهد من عهودها السابقة . ويسجل التاريخ لصلاح الدين الأيوبى مفخرة الانتصار على الصليبيين بعد حروب دامت بينه وبينهم خمس سنين متوالية ، انتهت بانتزاع الشام من أيديهم واعادته إلى حظيرة الاسلام واخضاعه للسيادة المصرية من جديد .

ويذكر التاريخ للملك الكامل والملك الصالح من ملوك « بنى أيوب » جهادهم فى سبيل انقاذ الشام ومصر من خطر الصليبيين .

وتاريخ الأيوبيين على ما هو معلوم سلسلة كفاح ونضال شديدين من أجل نصرة الاسلام والمسلمين ؛ علت فى أيامهم مكانة مصر فى نظر العالم الاسلامى — إذ تزعمت مصر حركة الدفاع عن الاسلام ، ونجح حكامها فى ذلك إلى أقصى حدود النجاح ، فلا غرابة أن سجل تاريخ الاستقلال المصرى لهؤلاء الأبطال صفحات من المجد باقيات على الزمن .

وكادت القومية المصرية فى هذا العهد تتلاشى فى الفكرة الاسلامية العامة ، ولكن ذلك لم يكن له أي تأثير على الحقيقة الواقعة وهى احتفاظ الأيوبيين بسلامة البلاد من الخطر الذى هددها ، وفرض سيادتها على ما جاورها من الأقطار . وحق للأيوبيين أن يفاخروا الأجيال بمقدرتهم على تحقيق الغرضين معاً ردحاً من الزمن .

* * *

٣ — وانقضت دولة الأيوبيين بما سجلت على الزمن من مفاخر تزهو بها القومية القومية المصرية الاسلامية أشد الزهو وأصدقه ، وآل أمر هذه البلاد إلى حكم المماليك البحرية والمماليك البرجيّة من بعدهم ، فنالت مصر على أيدى هؤلاء ، ولو أنهم كانوا من الأجانب ، غاية ما كانت تطمح اليه علوًّا وسؤدداً ، فقد ارتقت فى عهدهما الصناعةُ وتحركت التجارة بما لم يسبق له مثيل ، وتقدمت العلوم ، وجادت الفنون ، واتسعت رقعة الملك ، وانبسط سلطان البلاد على كثير مما يليها كالشام وبلاد العرب والجزيرة والسودان ، وأبرمت المعاهدات التجارية مع البندقية وفلورنسا ، ترغيباً فى وفود الأجانب بمتاجرهم على مصر قصدَ انماء الحركة التجارية بين الشرق والغرب ، مما كان يراد من ورائه امتلاء خزائن « الجمارك » المصرية « برسوم » السلع .

وحقق المماليك لهذه البلاد رخاءً مادياً عظيماً ساعدهم على التعمير والاصلاح . ومن آثار التقدم المادى الذى أحرزته البلاد على عهد المماليك ما نشاهده باقياً من عصرهم من العمائر الضخمة بين مسجد وبيمارستان وخانقاه ودار علم وغير ذلك ، مما حفلت به « قاهرة المماليك »

من جليل المبانى وعظيم العمائر. ذلك فضلا عن تقدم لحق كل نواحى الفنون.

وفى هذا العهد نضجت الحضارة الاسلامية فى شتى نواحيها ، وآل إلى مصر على أثر سقوط بغداد فى أيدى التتار تراث على عظيم القيمة جاء اليها بطرق هجرة العلماء تحت ضغط الغزو التترى ، زاد الثروة العلمية فيها زيادة ذات بال . وكان لهذا الحادث من الآثار مثلما كان لهجرة العلماء من القسطنطينية إلى أنحاء أوروبا على أثر غزو السلطان «محمد الفاتح» لها عام ١٤٥٣ م .

وصمدت مصر المملوكية لأحداث السياسة والحرب فى وقت اضطرب فيه حبل السلام بسبب غزوات التتار والصليبيين — وفى وسط ذلك المعترك العنيف وقفت مصر وقفتها التاريخية، مرفوعة الرأس، عزيزة الجانب ، تصد غارات التتار وتدفع عادية الصليبيين ، وتحول بين الغرب الاسلامى وبين هجمات التتار عليه ، وتخلصه بذلك من خراب مؤكد .

وشهد هذا العصر فيما شهد نضوجاً قومياً وفكرياً وفنياً ، هو ثمرة من ثمار تلك الطمأنينة التى تمتعت بها مصر فى حكم المماليك ، ولا يكاد يعرف تاريخ العمارة الاسلامية أروع من تلك الآثار التى خلفتها لنا هذه الدولة المجيدة شاهدةً على رخاء مادى منقطع النظير .

وأنشأ المماليك الأساطيل البحرية ، وجاسوا بها خلال البحار المجاورة ، وناوأوا القوى البحرية الأوروبية ، وبلغت سطوة مصر مبلغاً عظيماً ، وأدرك سلطانها الخارجى ما وراء سوريا وبلاد العرب — وفى عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨/٦٧٦ هـ) ، صارت للقاهرة مكانة ممتازة بسبب ايواء الظاهر للخليفة العباسى الفار من وجه التتار ، وأسكانه القلعة ، وتحقق بذلك حلم

كبير كان يحلم به «ابن طولون» من قبل. وعقدت على عهد «الظاهر» المعاهدات مع صقلية وبيزنطة واسبانيا ، ونمت العلاقات بين مصر وتلك الأقطار ، حتى لقد اقتبست الفنون عامة والفنون العمارية خاصة بعض أصولها من فنون تلك البلاد الصديقة .

وجاءت أسرة قلاوون الشهيرة بما عرف عنها من طيب الأثر فى التاريخ المصرى الاسلامى ، فتابعت سياسة القوة فى الخارج والداخل ، وعَقَدَت بدورها معاهدات الود والمنفعة التجارية المتبادلة مع دول أوروبا .

* * *

٤ — واعترت البلاد فى أواخر عصر المماليك فترة ضعف أطمعت فيها الأتراك العثمانيين الذين تاخمت أملاكهم فى آسيا الصغرى أملاكَ مصر فى الشام ، وجرت بين الفريقين موقعة مرج دابق (١٥١٧ م) وفيها أبلى الجيش المصرى الباسل بلاءً حسناً . ووقعت مصر فى يد العثمانيين فترة من الزمن ليست بالقصيره ، وتبعت الدولة العثمانية تبعية سياسية. على أن هذه التبعية ما لبثت أن صارت مع الزمن اسمية ، إذ استرجع مماليك العهد التركى نفوذهم تدريجاً ، وقل نفوذ الوالى التركى وسقطت هيبته ، واستأثر المماليك منه بأهم علائم سلطانه ، ونعنى بها قيادةَ الجيوش وجبايةَ الضرائب . وانتهى هذا التزايد فى السلطان إلى تولية على بك الكبير (شيخاً للبلد) — وتاريخ على بك الكبير يكوّن صفحةً من صفحات المجد المصرى ، فقد أعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية (عام ١٧٦٨ م) وأضاف إلى رقعتها جزءاً من بلاد العرب ، وحاول الاستيلاء على الشام ، ولولا فعل الخيانة لتبدل وجه التاريخ على يديه بعض التبديل .

* * *

٥ — وفتح الفرنسيون مصر عام ١٧٩٨م ، ولكن المصريين قاوموا طول الوقت حكم هؤلاء الأجانب. وتجلت رغبتهم الكامنة فى الاستقلال ورفع نير الذل عن كواهلهم فى ثورة اكتوبر ١٧٩٨ على الحكم الفرنسى جملة.

وتآزرت قوى المماليك مع القوى الحربية التركية والانجليزية على الخلاص من الحكم الفرنسى ؛ وبزواله عادت البلاد إلى حكم العثمانيين بالاسم وحكم «بكوات» المماليك بالفعل.

٦ — وما أن ولىَ «محمد على باشا» بحسن سياسته أمر هذه البلاد ، حتى عمل جاهداً على انهاضها وتخليصها من مفاسد الزمن ، وتوجيهها وجهةً قوميّةً جديدة لا يكون السلطان فيها للمماليك الذين فسدت على أيدى أواخرهم أحوال البلاد — وساعد على فسادها وانحطاطها ذلك النظام الذى كان قد وضعه السلطان سليم الأول لحكم البلاد.

وتمكن هذا البطل العظيم من اضعاف سلطة الوالى العثمانى ، وتخضيد شوكة المماليك فى آن واحد. وقرب من نفوس المصريين «فبايعوه» والياً على مصر ، ولم يسع تركيا الا التسليم بالأمر الواقع، فأجابت هذا الشعب التائق إلى الاستقلال إلى طلبته ، وقلدت «محمداً علياً» ولاية هذه الديار عام ١٨٠٥م.

وبُعثت مصر على يدى هذا العاهل الكبير بعثاً جديداً ، فأمحت مفاسد قرون ثلاثة أو ما يقرب ، فى سنوات قلائل من حكمه — فقد نظمت إدارة البلاد وسنّت القوانين واللوائح ، وأصلحت الأراضى الزراعية ، وأقيمت القناطر ، وشُقّت الترع ، ونظّمت جباية الضرائب ، وافتتحت المدارس وأوفدت البعثات العلمية إلى أوربا ، وشيدت المصانع المختلفة لسد حاجات

الجيش (وكان الجيش محور الاصلاح بوجه عام)، وأنشئت الجيوش على أحدث النظم الأوروبية، وفُتِحَ السودان، وبُنِى الأسطولُ المصرى وخاضَ غمارَ المعارك البحرية.

وتاقت نفس البطل بعد ذلك إلى فرض سيادته الخارجية على الأقطار المجاورة من أملاك السلطان. وشَجَرت بينه وبين السلطان العثمانى حروب كان على أثرها بدء تحلل مصر من التبعية التركية. وحصلت مصر على « فرمانات » أثبتت حقها فى الاستقلال، وأعطتها السيادة على السودان.

* * *

٧ — وتأيد فى عهد المغفور له «الخديو اسماعيل» استقلال مصر عن تركيا، وجعلت مصر وراثية فى أكبر أبناء حاكمها، بعد أن كان حكمها وراثياً فى أكبر أبناء الأسرة الحاكمة سناً، وأطلقت يدها فى شئون التعمير والاصلاح، وعقدِ المعاهدات وتجييش الجيوش، وانشاء السفن والأساطيل دون استئذان السلطان. وأصبحت مصر بذلك حرة تمام الحرية فى تدبير شئونها الداخلية والخارجية جميعاً — وزادت رقعة أملاك مصر فى أفريقية، فملكت مصوع وسواكن وهرر، وبلغت حدود المملكة المصرية من الجنوب خط الاستواء، وساهمت البلاد بنصيب واضح فى مكافحة الرقيق، وسايرت الرقىّ الأوروبى، حتى حقّت عليها كلمة «الخديو اسماعيل» الخالدة « مصر قطعة من أوروبا ».

* * *

٨ — وشابت هذه النهضة المصرية التى نهضتها البلاد على يد الأسرة المحمدية العلوية بعض الشوائب — ولكن الوطنية المصرية المجاهدة المصابرة تغلبت

آخر الأمر، وتمكنت فى مدى نصف القرن المنسلخ من استعادة حقوق هذه البلاد بجهاد طويل شاق، انتهى بالمعاهدة التى عقدت بين مصر وبريطانيا عام ١٩٣٦

* * *

وهكذا نجد التاريخ المصرى سلسلة طويلة من الجهاد فى سبيل الوطن والقومية، كتب لمصر فيه النصر فى كل مرحلة من مراحل ذلك الجهاد، وتوجهت جهودها فى كل مرة بالاستقلال عن حكم الأجنبى — أفلا يحق لمصر الفخر بهذه الوطنية الرائعة التى لم تخمد من سَورتها القرون، ولم يثنها عن ادراك الغاية اضطهادٌ أو عسف، ولم يعترها فى جلادها وجهادها وهن — ولم يصبها كلال!





المظهر الفنى — ١

نُقـــلةُ الفن

انفاق مؤرخى الفنون على أنه كان للقبط فن قومى يستمد أصوله من الفن القديم — اكتمال هذا الفن فى القرن الخامس الميلادى — المسيحية تصبغه بصبغة خاصة — تزيل منه آثار الوثنية — الفنون التى أدركها العرب مزدهرة بهذه البلاد — الفن الاسكندرى — العرب ينتفعون بدراية الأمم المغزوة فى ميدان الفن — رسالة العرب فى الفن — العرب يستخدمون مهارة القبط فى ميدان الفنون - النقلة من الطراز القبطى إلى الطراز الاسلامى

أدرك العرب فى مصر فنا موروثاً عن القرون التى سبقت الفتح الاسلامى، اصطلح الناس على تسميته بالفن القبطى، ويفسره شتريجوفسكى(١) بأنه فن مختلط الأصول، أبدعته أيد حذقت تقاليد المصريين القدماء، أغريق الصبغة، تتجلى فى زخارفه تفاصيل سورية وهلينية — ولا يميل شتريجوفسكى إلى الاعتقاد بوجود عناصر مسيحية فى هذا الفن، فى حين يرى فيه « ماسپرو » لوناً جديداً من ألوان الفن المصرى، وأثراً من آثار الديانة المسيحية، وشكلا محلياً من أشكال الفن البيزنطى، نما فى مصر واتخذ فيها طابعه الخاص.

ويذهب جاييه(٢) إلى أن هذا الفن إنما هو من انتاج المسيحيين، ويقدر

(١) Strzygowski, Cairo Mus. Cat., Koptische Kunst, p. XVI

(٢) جاييه — الفن القبطى ص ١ Gayet, L'Art Copte

له حياة تمتد من القرن الرابع إلى القرن السابع الميلادى ؛ ويحدد « ڤالدمير » بدايته باستقرار المسيحية فى مصر حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى .

ونحن نلحظ فى آراء شتريجوفسكى وماسپرو وجاييه وڤالدمير اتفاقاً على أن هذا الفن القبطى فن متوارث تميز فيه العين الفاحصة عناصر مصرية تشوبها مؤثرات خارجية هلينية سورية وبيزنطية — وتخلع عليها المسيحية المصرية روحاً خاصة .

وهذا الفن القبطى يجىء مباشرة بعد الفن المعروف فى تاريخ الفنون المصرية بالفن «الاغريقى الرومانى» — وهو متحول عنه تحولا بطيئا لم تنعدم فيه مميزات الفن الاصلى. ولقد اثرت المسيحية فى هذا الفن تأثيرها المحتم، فمحت منه صور الآلهة الوثنية ، وأحلت محلها صور القديسين ومناظر من الانجيل ، وغدا الفن الجديد بهذا مسيحى المظهر، وأن ظل جوهره يحتفظ بتقاليد الفن القديم ويرعى اصوله .

ونميز فى هذا الفن القبطى ثلاثة عناصر واضحة: أولها الزخرفة الاغريقية الرومانية ، وثانيها مؤثرات من غرب آسيا من فنون ايران وسوريا، وثالثها ، وهو أكثرها وضوحا وأقواها ظهورا ، العنصر الدينى المسيحى الذى استمد موضوعاته من الكتاب المقدس(١) .

ودرج الفن القبطى فى سبيل النهوض حتى قدر له الاكمال فى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، واعتوره الضعف فى القرن السادس وأدرك

---

(١) كندريك — دليل المنسوجات المستخرجة من المقابر المصرية — العصر القبطى

A. F. Kendrick, Cat. of Textiles from Burying-Grounds in Egypt, III, Coptic Period.

العرب منه صوره شاحبة عند فتحهم لهذه البلاد، هى الصلة الوثيقة بين الفن المصرى القديم — والفن المصرى الأسلامى .

* * *

ومن المعروف أنه تم فى منتصف القرن الخامس الميلادى انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الاغريقية، وتبع ذلك فى الوقت نفسه انفصال فى كل ناحية من نواحى الحياة تقريبا، وتجلت لهذا الانفصال علائم قوية فى الأدب والفن بوجه خاص — وتلاشت أوكادت ، تلك الروابط التى كانت تربط الفن المصرى بالفن البيزنطى ، وتحرر المصريون إجمالا من موضوعات الفنون الوثنية ، وانعدمت فى الفن الجديد تلك المشاهد الوثنية المألوفة فى فنون مصر القديمة ، وفنون العصرين البطليموسى والرومانى؛ وقلت رغبتهم فى تصوير الانسان العادى أو تجسيمه، ولم يستسيغوا ذلك الا فى تمثيل «السيد المسيح » والعذراء ، والقديسين ، وكانت الكثرة من انتاجهم فى التصوير لا فى النحت، حتى لقد فقد المصريون بمرور الزمن مقدرتهم القديمة فى هذا المضمار(١) .

ولهذا السبب نجد التصوير من الفنون التى ادركها العرب فى مصر فى منتصف القرن السابع الميلادى مزدهرة ، ولاسيما فى الاسكندرية. ومن اشهر أنواع التصاوير ذلك النوع الدقيق (Miniature) الذى كانت تحلى به المخطوطات، فضلا عن الصور الدينية التى كانت الكنائس عامرة بها ، تمثل السيد المسيح والعذراء والقديسين . .

واشتهر قبط مصر باستخدام الزخارف الهندسية والنباتية التى ورثها عنهم

(١) الدكتور زكى محمد حسن — بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية (من مطبوعات جمعية محبى الفن القبطى — ١٩٣٧)

العرب واغرموا بها غراما لاحد له ، وكونت فى فنونهم الجزء الرئيسى .

وكانت الاسكندرية عامرة بالمبانى الضخمة بها من الحصون والاسوار والكنائس والطرق ذات العمد مايشهد ببقاء فن البناء مزدهرا ، وتبعت هذا الفن المعمارى فنون اخرى فرعية استخدمت فى تجميل الجدران وغيرها من السطوح . ومن هذه الفنون الفرعية صناعة الفسيفساء الرخامية ذات الالوان ، والفسيفساء الزجاجية التى يذكرها « أبو صالح الارمنى » ، وكانت تتكون منها الصور المختلفة . ومن ذلك أيضا افاريز المرمر لتغطية الجدران ، وتكسية الأرض بالرخام . وقد احتفظ القبط زمنا طويلا فى حكم العرب بدرايتهم فى فنون البناء وصناعة الفسيفساء . وكان يطلق على هذه الفروع الفنية جميعا أسم الفن الاسكندرى Opus Alexandrinum

وعرفت مصر فيما عدا ذلك من الفنون صناعة التماثيل ، غير أن هذه الصناعة ادركها الفتح العربى مضمحلة ، وكذلك صناعة نحت العاج التى كانت قد بلغت غاية كمالها فى ذلك الوقت(١) ، وكذلك صناعة النسيج وتطعيم المعادن — وكلها صناعات ترجع الى العصر المصرى القديم ، فلقد عرف عن الاسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة الفرعونيتين تفوق بهر العالم فى صناعة الحلى وفى الفنون التطبيقية اطلاقا . ظهر لنا ذلك مما عثر المنقبون عليه من حلى هاتين الأسرتين — ولا سيما حلى عصر الملك «توت عنخ آمين»

* * *

بقيت هذه الصناعات الصغرى قائمة الى ما بعد الفتح العربى حين عاودتها الحياة فى القرون الوسطى الاسلامية فى مصر ، وتحتفظ المتاحف بنماذج قيمة من الحلى الباقية من هذا العصر .

(٢) ديل — الحضارة البيزنطية فى القرن السادس ص ٥٢و٥٣
Diehl, La Civilisation Byzantine au VI Siècle.

وتفوقت مصر فى العصر الفرعونى وفى العصور التى تلته حتى العصر العربى، فى صناعة الورق من البردى وصناعة الخزف والزجاج . ومما يؤيد شهرة مصر بهذه الصناعة ما كان يفرضه الامبراطور « أغسطس » من جزية الزجاج العَينيَّة التى كانت ترسل عادة مع الجزية السنوية الى عاصمة الامبراطورية — ويحتوى المتحف الاغريقى الرومانى بالاسكندرية عددا من الامثلة البديعة الدالة على رقى هذه الصناعة . يقول « بطلر » فى كتابه فتح العرب لمصر : « لا خلاف فى أن هذه الصناعات اسلمها القبط بعضهم لبعض جيلا بعد جيل حتى العصور الوسطى ؛ وكان آخر ما أخرجته تلك الصناعة المصابيح المموهة بالمينا التى كانت تزين الكنائس والمساجد، وهى اليوم مفخرة المتاحف ؛ على أن صناعة هذه المشكاوات المموهة بالمينا محل شك ماتزال بين علماء الآثار الاسلامية ، ومن الصعب ان نجزم انها من صناعة مصر دون سوريا، فهناك من الادلة على امكان صناعتها فى سوريا مايجعلنا فى حيرة من أمرها»(١). وعلى الرغم من ذلك فالمعروف أن الفسطاط كانت فى العصر الاسلامى مركزا ممتازا لصناعة الزجاج والخزف، ولا يصعب أن نعتقد أن الايدى التى عملت بالفسطاط فى العصر العربى كانت أيد قبطية حذقت تقاليد هذه الصناعة من قديم، وخدمت العرب بمهارتها فى هذا المضمار، كما خدمتهم فى الميادين الاخرى . وقد شاد « ناصرى خسرو » الرحالة الفارسى بجودة زجاج الفسطاط ورقته وصفائه حوالى عام ١٠٤٧ للميلاد .

* * *

وكانت للمنسوجات تجارة رائجة مذ كانت صناعتها زاهرة بمدن الدلتا

---

(١) بطلر — فتح العرب لمصر « التعريب » ص ٩٦

والصعيد، لاسيما فى اخميم والانطونين والفيوم، وكانت بهما فى العصر الرمانى مراكز هامة للنسج . وتحفل دور الآثار بمخلفات هذا العصر . ويحتوى متحف «ڤكتوريا والبرت» فى سوث كنزنجتون فى لندن اكبر مجموعة من انتاج پانوپوليس (اخميم) — وهذه المنسوجات انماط مختلفة ، فبعضها يمت الى الأنماط المصرية القديمة بصلة وثيقة ، وبعضها يحمل رسوما مسيحية ، والبعض زخارف فارسية . وقد كشفت بسقارة منسوجات عليها زخارف قديمة تشبه زخارف المنسوجات التى كشفت من العصرين الرومانى والقبطى — وهذا كبير الدلالة على أن تقاليد هذه الصناعة بقيت متوارثة ومرعية حتى العصر العربى .

يقول « بطلر » انه كلما امعنا فى درس تاريخ مصر ، سواء منه ماكان فى العصر البيزنطى أو العصر العربى ، زاد يقيننا بأن القبط كانوا أصحاب الفضل فى بقاء آثار الصناعة حية ماثلة فى البلاد — وذلك فى كل شعبة من شعبها : فى صناعة الذهب وتطعيم المعادن ، والزخرفة بالمينا ، وصناعة الزجاج وغير ذلك من صناعات الانشاء والتجميل[١] .

وكانت بالبلاد صناعات اخرى كالنجارة يحذقها الاقباط ولا سيما نجارة السفن والادوات الزراعية . واشتهرت الاسكندرية بصناعة السفن من زمن بعيد ، وظلت لها شهرتها حتى عصر معاوية الذى أمر ببناء السفن الحربية فى ثغر الاسكندرية ، ولم يكن بالمدينة حينذاك من الصناع البيزنطيين من كان يمكن أن يسند اليهم مثل هذا العمل — فقد رحل هؤلاء عن الاسكندرية قبل ذلك بزمن .

* * *

(١) بطلر « فتح العرب لمصر » ، التعريب — ص ٩٦ وما بعدها

وتقوم لدينا الشواهد العديدة على أن الفن المصرى الذى أدركه العرب بهذه البلاد تحول عن مصريته المسيحية الى القومية الجديدة، وأصبح مظهرا من مظاهرها ، فقد ابقى العرب على القبط فى ميدان الفنون، واستغلوا مهارتهم الموروثة فى هذا السبيل — و ذلك كان شأنهم بالنسبة للفنون فى كل مكان نزلوا به فاتحين.

والحق أنه لا تعوزنا الادلة على أن الصناعات التى ازدهرت بمصر فى العصر العربى ليست إلا استمرارا لما كان معروفا من الصناعات فى العصر السابق على الاسلام — فانا نكاد نرى صناعة النسيج لم تفارق مراكزها الاولى التى كانت بها قبل فتح العرب للبلاد، وكذلك صناعة السفن والخزف والزجاج والفسيفساء والورق لم تكد تتحول عن مراكزها الاصلية(١) — وتعليل ذلك أن العرب لم يكن من دأبهم تجريد أهل البلاد المفتوحة من مزاياهم فى الادارة أو الفن، استغلالاً لمواهب هؤلاء فى الحكم وفى عالم الفنون على السواء. وقد ساعد ذلك العرب على التفرغ لامور الدين، فقد كفوا به امور الدنيا.

* * *

اجتاز الفن القبطى فى مصر مرحلة انتقال من طرازة الخاص الى الطراز الاسلامى فى خلال قرنين من الزمان اعقبا الفتح. وكانت للفن المصرى مرحلة تحول تشبه مرحلة التحول التى درج فيها الشعب المصرى فى خلال تلك المدة ثم انتهت بنضوجه السياسى — ففى خلال قرنين من الزمان يزيدان قليلا، تطور الفن فى وادى النيل، وأصبحت له شخصية مستقلة وكيان جديد — حدث ذلك فى الوقت الذى تم فيه استقلال مصر عن الخلافة العباسية، فلم يكن

---

(١) بطلر — « الخزف الاسلامى » ج ١ ص ٣٢٠ / ٣٢١ Butler, Islamic Pottery.

حدوثه مصادفة ، وانما كان نضوجا فى ناحية الفن ، كنضوج الأمة المصرية الجديدة فى ناحية الاجتماع والسياسة .

يقول مؤلف كتاب الفن الاسلامى فى مصر : « ليس غريبا أن تظل مصر قبل الطولونيين تابعة للخلافة العباسية فى الفن كما كانت تتبعها فى السياسة ، وليس غريبا أن تكون نشأة الفن الاسلامى فى مصر وحياته فيها قبل العصر الطولونى يحيط بهما شىء من الغموض »

— « والفن الطولونى أول مرحلة واضحة جلية فى تاريخ الفن الاسلامى بأرض الفراعنة . وسيرى القراء أنه لم يكن مستقلا كل الاستقلال عن فن الخلافة العباسية فى ذلك العهد ، ولكنه على تبعيته واشتقاقه منه — كان منافسا له » — ولا غرو ، فقد استطاع بنو طولون أن يتخذوا لأنفسهم بلاطا كبلاط الخليفة فى سامرا وبغداد ان لم يفقه ابهة وعظمة »

على أن ذلك الغموض الذى يشير اليه مؤلف « الفن الاسلامى فى مصر » سببه على الاغلب عدم عثورنا على ما يمكن أن يلقى ضوءاً كافياً على فنون القرنين الأول والثانى الهجريين فى هذه البلاد ، إذ المعروف أن القبط عاودتهم مهارتهم الموروثة فى الفنون فى العصرين الطولونى والفاطمى — ومكن التسامح الدينى الفاطمى لهم من أن يلعبوا دورا هاما على مسرح الفن من جديد — حتى لقد يصح أن يعتبر عصر الفواطم من هذه الناحية استئنافا للفن القديم الذى حذقه الاقباط ، برغم ما يبدو فى الفنون الفاطمية من التأثيرات الايرانية والسورية والبربرية — وانه على الرغم من ذلك الغموض الذى يعتور الحياة الفنية فى القرنين الاول والثانى الهجريين فى مصر ، يتعذر على العقل أن يتصور أنه لم تكن لهذه الفترة من الزمن فنونها — إذ أنه اذا

ساغ أن نتصور ذلك — فأين اذن ذهبت مهارة الصناع المصريين الموروثة؟ — ومن قام على أمر الصناعة حين كان هم العرب الفاتحين الانصراف الى نشر العقيدة والتمكين لها ؟

* * *

على أنه مما يخالف طبيعة العرب كل المخالفة ، أن يكونوا قد اغفلوا مهارة أهل البلاد فى ناحية الفنون ، وهم الذين يذكرهم المؤرخ الاجتماعى ، ابن خلدون ، بالقصور فى المبانى والصنائع والاستغناء بما وجدوا من مبانى غيرهم وفنونهم عن احتراف الصناعة وخدمتها — فأذا كان ذلك كذلك ، فكيف يتسنى لشعب أن يعيش من غير صناعة ومن غير فن زهاء القرنين ؟ والحقيقة التى يوحى بها العقل ، ويحتمها المنطق السليم، هى أن العرب لا بد أن يكونوا قد استخدموا مهارة المصرين الموروثة فى صناعة الاقمشة والزجاج والخزف والورق ، وفى صناعة البناء وزخرفته ، وتزيين الدور بالفسيفساء ، وتغشية الجدران والسقوف بالاخشاب المزخرفة ، وفى صناعة الاثاث للدور والمساجد خلال القرنين الأولين من الفتح — غير انه يلاحظ أن الصبغة المسيحية التى كانت تسم فنون القبط اخذت فى التلاشى تدريجا ، وبدأ يحل محلها طراز فنى جديد ، ليس شيئا مبتدعا فى ذاته ، وانماهو لون جديد من الوان الفن المحلى ، دمغه الاسلام بخاتمه — وكان ذلك « الخاتم الرسمى » على حد تعبير الاستاذ « جاستون فييت »[١] ، هو ادخال الحروف العربية الكوفية كعنصر رئيسى من عناصر الزخرفة — ولعل ذلك كان له فى بداية الامر معنى دينى — هو تعظيم الله بحمده وشكره وترديد نعمائه على منتجات الفنون.

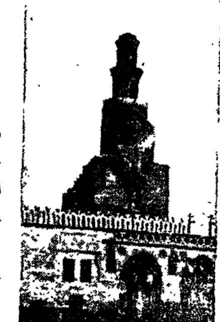
* * *

---

(١) مقدمة الدليل الموجز لدار الآثار العربية (مطبعة المعهد العلمى الفرنسى ١٩٣٩)

ومهما يكن من الأمر ، فقد كانت «النقلة» من الطراز القبطى الى الطراز الاسلامى بطيئة غير محسة — فأنك لا تكاد تدرك حقيقة القطعة الفنية ، أهى قبطية سابقة على الفتح العربى ، أم اسلامية مبكرة ، الا بما يدمغها من الكتابات العربية الكوفية .

وظهر ذلك « الخاتم » ، على المنسوجات ذات الزخارف التقليدية القبطية والصناعة الخشنة المنسوبة الى الفيوم واخميم ، وكذلك ظهر على الاخشاب المزخرفة ذات المسحة البيزنطية الساسانية ، ومنها نماذج بدار الآثار العربية ، كما ظهر على القطع القليلة المنسوبة الى العصر الطولونى من المنسوجات ، وهى قطع قريبة الشبه — من حيث مادة صناعتها وزخارفها وخشونتها — بالنسيج القبطى ، وهو كذلك يلاحظ على القطع الخزفية المكتشفة فى الفسطاط من العصر الطولونى .



فن مصرى اسـلامى

اضطلاع المصريين بمسائل الفنون — صناعات النسيج والخشب والزجاج والخزف والتصوير صناعات مصرية قديمة — فن جديد مصرى الأصول اسلامى الطابع — منافسة الخلافة تدعو إلى بعض الاقتباس من فنون العراق — الاقتباس عارض ينتهى — وهو فى العمارة دون غيرها — العلاقة القوية بين فنون العصر الطولونى وفنون العصر القبطى — وفرة الأمثلة على ذلك .

هؤلاء المصريون — الذين دلتنا المصادر التاريخية، ومن بينها «بردية أفروديت(١)»، على أنهم اشتركوا فى تشييد العمائر الاسلامية الكبرى فى فلسطين وسوريا وبلاد العرب، وزخرفتها بالفسيفساء والجص، والذين ساهموا فى بناء «قصر المشتى» بشرق الأردن، والذين منحهم الاسلام بعد وفوده على بلادهم تسامحاً طيباً، تمكنوا فى ظلاله من استئناف جهودهم الصناعية والفنية فى معاقلهم الخاصة فى الصعيد والدلتا، والذين كانوا عوناً للطبقة الحاكمة على تسيير دفة الأمور فى البلاد بسبب درايتهم القديمة بادارتها وخراجها — ليس من السهل أن نتصور أنهم نُحّوا عن ميدان الفنون والصناعات وأخرجوا منه اخراجاً، لمجرد أن ابن طولون استجلب إلى هذه البلاد فناً

(١) بردية «أفروديت» التى كتبها «قرة بن شريك» إلى عامله الروى على منطقة «أفروديت» فى فى صعيد مصر يأمره فيها بجمع العمال والمؤن لارسالها إلى فلسطين للمعاونة فى بناء المسجد الأقصى .

عراقياً من «سامرا» . والحق أن ما استجلبه ابن طولون من سامرا من فنون ، لم يتضح أثره إلا في العمارة وزخرفة المباني بالجص والخشب ، أما ما عدا ذلك من الفنون فقد ظل المصريون يحتفظون فيه بما كان لهم من سابق المعرفة والدراية . ولم يستطع العرب الاستغناء عن خدمات المصريين في الفنون إلا حوالى القرن الرابع الهجرى بعد أن أفادوا الكثير من درايتهم ، وتلقنوا عنهم أسرار الصناعة والفنون — ففي ميدان النسيج كان تطور الصناعة منتظماً ليس فيه من الطفرة أو الانقلاب ما يبعث على الاعتقاد بتغير الأساليب القديمة ، وكل ما لحق هذه الصناعة إنما كان في زخارف المنسوجات ليس غير ، إذ هجرت رسوم الحيوان والآدميين — وهي الرسوم التي كانت مألوفة في المنسوجات القبطية ، واستبدلت بزخارف أساسها وحدات هندسية وكتابية ولعل السبب في ذلك راجع إلى كراهية الاسلام تصوير الكائنات الحية .

* * *

وكانت مراكز النسيج تعرف « بالطراز » ، وهو إما طراز العامة ، وكان ينتج لجمهور المستهلكين ، أو طراز الخاصة ، وكان انتاجه للخليفة ورجال بلاطه وكبار رجال الدولة ممن يريد الخليفة أن يخلع عليهم الخلع في المناسبات الخاصة . وأغلب الظن أن «نظام الطراز» بقية من نظام الاحتكار الروماني لصناعة النسج ، بل ربما كان نظاماً متخلفاً عن مصر الفرعونية التي عرف فيها نوع من الاحتكار في هذه الصناعة ، حيث كان يتبع كل معبد من المعابد مصنع نسج ، تدر فوائده الخير على الحكومة والكهنة في آن واحد.(١)

وهناك قطعة باسم « الأمين » بن هرون الرشيد ، صنعت بطراز العامة في مصر عثر عليها في الفسطاط ، وقوام زخرفتها شريط عريض

(١) زكى محمد حسن ـ الفن الاسلامى فى مصر ص ٨٤

ذو «جامات» يذكرنا بأشرطة المنسوجات القبطية وجاماتها[١]، وقطعة أخرى أسبق عهدا مشهورة باسم عمامة « سمويل بن موسى » مؤرخة ٨٨ للهجرة، قوام زخرفتها شريط ذو « جامات »، بها زخارف حيوانية لا تختلف كثيراً عما يشاهد فى المنسوجات القبطية من زخارف، وقطعة ثالثة من نسيج الكتان الخشن تنسب إلى العصر الطولونى، تحمل كتابات كوفية كبيرة الحروف، بها زخارف سامرية واضحة[٢]، صناعتها مصرية صريحة، — وهكذا تبدو على معظم قطع النسيج الطولونية المسحة القبطية التقليدية.

ويورد الدكتور زكى حسن فى كتابه «الفن الاسلامى فى مصر» ما يؤيد الرأى الذى نذهب اليه، فيقول: «وكانت فى صناعة النسيج بمصر مرحلة انتقال بين العصر القبطى البحت والعصر الاسلامى البحت، ترى فيها زخارف من طيور متقابلة وجامات بيضية الشكل، فيها حيوانات صغيرة أو طيور[٣]؛ وفى العصر الطولونى كانت التقاليد الزخرفية القديمة والقبطية لا تزال تسود صناعة النسيج... وفى دار الآثار العربية قطع عديدة أغلبها سميك ومنسوج فيه رسوم طولونية المسحة..»

* * *

وليست هذه المسحة الطولونية فى النسيج إلا المسحة القبطية بعينها، أضيف اليها الطابع الاسلامى الذى دمغ كل منتجات الفنون تقريباً، وهو

(١) هذه القطعة كثيرة الشبه بمنتجات أخميم (القبطية) من القرنين السابع والثامن الميلاديين ـ بمجموعة متحف فكتوريا والبرت.

(٢) اللوحتان رقم ٢١ و٢٣ من كتاب الفن الاسلامى فى مصر.

(٣) أنظر دليل المتحف القبطى لمرقص سميكة باشا — الجزء الأول صفحة ١١٩ — وكتاب الفن الاسلامى فى مصر، صفحة ٨٨.

عبارات عربية رقمت بالخط «الكوفى» كانت أول الامر تتكون من تكرار كلمة «بركة» أو «بركة من الله» أو «نصر من الله»، أو ما شابه ذلك منسوجة فى صلب القطعة كأنما هى جزء من الزخارف.

ومن عجب أن نظل نشاهد فى العصر الاسلامى تلك الأشرطة الزخرفية ذات الأطراف السهمية التى كانت تحلى أكتاف الأقبية فى العصر القبطى، مع يسير من التعديل فى زخارفها(١).

والمعروف أن فن النسيج لم يتخذ صبغة اسلامية واضحة إلا فى العصر الفاطمى، حين أمكنه التحرر من قيود الأساليب القبطية، والتخفف مما فيها من جفاف وغلظة، سواء فى طريقة النسج أو فى الزخارف التى تحليها.

* * *

وكانت لمصر القديمة شهرة خاصة فى صناعات الخشب، حذق القبط مهارة أجدادهم فيها، وكثر استخدامهم للأخشاب المزخرفة فى الكنائس لصناعة المقاعد والمذابح وغير ذلك من الأثاث الكنسى — وأخذ العرب عنهم استخدام الأثاث الخشبى فى المساجد، فصنعوا السقوف من الخشب وجمّلوها بالحفر والنقش عليها، وزخرفوا المشاهد والقباب وغيرها بالخشب المنقوش، وصنعوا الدكك والمحاريب المتنقلة وحوامل المصاحف. وقد اجتازت هذه الصناعة بدورها مرحلة انتقال. وفى دار الآثار العربية أمثلة من أخشاب عصر الانتقال عليها زخارف هلينية الطراز تعلوها مسحة ساسانية(٢). ومن أوضح عناصر الزخرفة فى الخشب فى هذا العصر عناقيد

---

(١) قارن اللوحة رقم ٧ من دليل المنسوجات المحفوظة بمتحف «سوث كنزنجتون» (العصر الاسلامى) باللوحة رقم ٥ من الدليل المذكور (العصر القبطى)

(٢) والمقصود بعصر الانتقال العصر الذى يمتد من القرن السابع حتى القرن التاسع الميلادى — وهو العصر العربى الاول الذى مهد للاستقلال الطولونى من الناحية الفنية.

العنب وأوراقه . ولعبت الكتابة العربية الكوفية دورا هاما فى زخرفة هذه الاخشاب ، وكانت بمثابة « الخاتم » الرسمى الذي دمغ المنتجات الخشبية فأصبحت به اسلامية الطابع — والكتابات الكوفية التى نراها فوق هذه الاخشاب نوع بسيط خال الزخرف ، قصير القوائم متزن ، وليس من شك فى أن هذا الطراز من الكتابة مهّد لظهور « الكوفى الطولونى » ، وكون نواته الاولى .

وتشارك الصناعة الخشبية صناعة البناء فى تأثرهما معا فى عصر ابن طولون باساليب العراق الفنية ، ولا غرابة فهما صنوان متلازمان لكثرة استخدام الخشب فى العمائر على شكل سقوف وأفاريز وأبواب ونوافذ وغيرها .

وتظهر أساليب سامرا العراقية فى زخارف الجص أيضا ، وهى فى مجموعها زخارف تميل فى طريقة قطعها الى الاستدارة .

* * *

ويتكلم المقريزى(١) عن تماثيل من الخشب اتخذها « خمارويه » بن أحمد ابن طولون فى « بيت الذهب » تمثل صورته وصور حظاياه ، على علو قامة ونصف ، لعلها بقية من خبرة المصريين بصناعة التماثيل .

والعلاقة وثيقة بين صناعات الخشب الطولونية وصناعات الخشب الفاطمية ويشرح مرحلة الانتقال بينهما الاستاذ الدكتور كينل Kühnel مدير القسم الاسلامى بمتحف برلين ، وهو يلح فى اثبات تطور الثانية عن الاولى — ولعلنا نجد فى ذلك الترابط الملحوظ فى الطرز — القبطية والطولونية والفاطمية — اثباتا أى اثبات للنظرية التى نريد أن ندعمها ، وهى تطور فن مصر

فى العصر الاسلامى فى جملته عن فنون مصر السابقة على الفتح العربى .

* * *

ويحدثنا الدكتور بطلر فى كتابه « الخزف الاسلامى » عن اردهار الفنون عامة فى القرن السابع الميلادى فى مصر ، وعن أخذ العرب عنها بطريق استخدام القبط الذين يرجع اليهم الفضل فى الاحتفاظ بتقاليدهذه الفنون فى عصر الانتقال من حكم الروم الى الحكم الاسلامى(١) .

وتبعث كثرة ما عُثر وما يعثر عليه فى أطلال الفسطاط من قطع الخزف على الاعتقاد بأن الفسطاط كانت مركزا هاما لهذه الصناعة لا سيما وقد عثر المنقبون على قطع خزفية كاملة تلفت فى الافران فشاه شكلها ، وغدت لا تصلح لما صنعت له — ووجود امثال هذ القطع الكاملة الشائهة ، من أقطع الادلة على قيام صناعة الخزف فى نفس المكان الذى عثر عليها فيه .

ونحن نرجح أنه كان فى موضع الفسطاط مركز لصناعة الخزف فى العصر السابق على العصر العربى ، قدر له النماء والازدهار فى ظل الحكم الاسلامى. ولا يبعد أن يكون لتحريم اتخاذ الآنية من الذهب فى الاسلام علاقة بنشوء صناعة الخزف ذى البريق المعدنى (Lustre Pottery) فى الفسطاط . وأن كان هناك خلاف فى الرأى فيما اذا كانت الفسطاط مركز تلك الصناعة الخزفية ذات البريق المعدنى ، أم أنها صناعة مستجلبة من العراق — وليس يهمنا هذا فى ذاته ، انما الذى يهمنا هو أن صناعة الخزف كانت فى العصر القبطى أقل جودة منها فى العصر الاسلامى عامة ، وأن صناعة الخزف الطولونى بوجه خاص كانت صناعة غير متقدمة ، رسومها تقليدية ، وصور

(١) بطلر — الخزف الاسلامى ج ١ص ٣١٦

الاشخاص التي تحليها تشبه الرسوم القبطية على المنسوجات — وهي صور قبيحة تبدو فيها العين مستديرة استدارة غير طبيعية، ويظهر الانف خطين رأسيين متوازيين في نهايتهما دائرة تمثل الفم، وقد كان من المحتمل نسبتها الى العصر القبطي — لولا أنها تحمل كتابات عربية كوفية.

* * *

ويرى الاستاذان «جروهمان» «وأرنولد» أن الصور التي عثر عليها في الاشمونين وغيرها مرقومة على أوراق البردى (من القرن التاسع — الثالث الهجرى) أن هي الا رسوم تذكّر باساليب الفن المصري القديم(١). والصور التي بهذه الاوراق البردية كثيرة الشبه بالصور المرقومة على الخزف الطولوني — أفلا يدل ذلك على اتساق الصلة بين الفنون القديمة، وفنون العصر الطولوني برمتها؟

* * *

تلك بعض النواحي التي برز فيها الصناع المصريون، وهنالك كثير غيرها من فروع الصناعة كانت للمصريين به دراية تقليدية، فقد حذق هؤلاء صناعة المعادن وصناعة الزجاج، ولهم في هذه الاخيرة تفوق موروث تشهد به مخلفات الفراعنة من الآثار الزجاجية وأعمال المينا مما تزخر به المتاحف الكبرى.

وقصارى القول أن المصريين من القبط الذين اسلموا أو الذين بقوا على دينهم، كانوا عماد الصناعة التي ازدهرت في مصر في العصر العربي، وهم الايدي التي خدمت العرب، ومكنت من أن يكون لهم بمصر فن خاص، وكونت

---

(١) أرنولد وجروهمان — The Islamic Book, P.3

الفن الطولونى المستقل — وبدون هذه الايدى لم يكن ممكنا أن ينشأ للأمة المصرية الاسلامية التى تم نضوجها فى القرن الثالث الهجرى فن تعتمد عليه ، وتتخذه دعامةً من دعائم الاستقلال .

حقاً أن ابن طولون استجلب من العراق بعض الفنون المعمارية وبعض الأساليب الخاصة فى الفنون الفرعية . وكادت تطغى تلك الأساليب العراقية على الفنون المحلية وتعمى النظر عن الأساليب القومية الموروثة ، وتسقط من تاريخ الفن المصرى فصلا من أهم فصوله — ولكن على الرغم من استعارة الطولونيين أساليب سامرا الزخرفية ، ومحاكاتهم فنون العراق المعمارية فى بناء «القطائع» والمسجد الجامع ، ليس فى الامكان أن نتجاهل الفن القومى المصرى بحال من الأحوال — ولا عجب فان رغبة ابن طولون فى الاستقلال عن الخلافة ، جعلته يطمح إلى منافستها — وحدا به طموحه هذا إلى الأخذ عن فنون سامرا . حتى لقد كادت عاصمته تبزُّ مقر الخلافة ، وتفوقه عمراناً ؛ وأسرف الطولونيون فى أعمال التعمير ، وما يتصل بها من فنون الانشاء والتجميل اسرافاً شديداً . وقد كان البذل ضرورة من ضرورات الاستقلال الطولونى ، وبه توفرت لبلاط الطولونيين أبهة ضارعت أبهة البلاط العباسى ، بل كادت تفوقها ، وكان ذلك فى وقت كثرت فيه فتن « الزنج » ، وتعددت ثوراتهم على الخلافة ، وأخذت الفوضى تدب فى جسم الدولة وتهد من كيانها هدا .

* * *

وكان شأن الطولونيين فى ذلك ، شأن الحكومة الرشيدة التى تبادل شعبها حباً بحب ، وتأخذ بيده إذا هم بالنهوض ، وتقيله من عثرته إذا عثر — ذلك الشعب الذى تم نضوجه فى مدى قرنين من الزمان ، استعاد فى خلالها ما كان له من صفات قومية مجيدة ، والذى لم يتخل لحظة عن تقاليده فى

الفنون ، وطرائق الحياة ، ولم يفته هذه المرة أيضاً أن ينتفع بمزايا الفنون الأخرى ، لما ركب فيه من طبيعة المهادنة والموادعة — ومن شأنهما أن يساعدا على الاستفادة والانتفاع .

بهذا هضم الفن المصرى التقليدى العنصر العراقى الذى وفد عليه ، إلا أن ذلك الاقتباس كان موقوتاً ، فقد أخذ يزول بزوال الدافع اليه — فما كادت الدولة الطولونية تضمحل ، حتى تلاشى معها ذلك المؤثر الأجنبي . وعاودت البلاد من جديد أساليبها الفنية الخاصة .

* * *

ويذهب مؤرخو الفنون إلى اعتبار الفن الطولونى فصلا مستقلا فى التاريخ الفنى لهذه البلاد بسبب ما فيه من العناصر الأجنبية الغالبة — ولكن الذين يذهبون هذا المذهب يتجاهلون أخذ الفنون لاحقها من سابقها تجاهلا تاما ، ويغفلون تقدم البلاد السياسى ونضوجها القومى — وهم بذلك يأخذون بالفكرة التى ترى فى «ابن طولون» مجرد ثائر على الخلافة، لا محققاً لآمال أمة . ونحن لا نحب أن نرى رأى هؤلاء — لأننا نؤمن بأن الحركة الطولونية الاستقلالية كانت تعبيراً عن شعور أمة دأبت على الاستقلال ، ونرى فى ابن طولون بطلا أدرك مثل البلاد العليا ، وأخذ على عاتقه الأمر الجلل ، والحادث الخطير ، ألا وهو تحقيق تلك المثل العليا التى انطوت عليها قلوب المصريين من أقدم العصور .



المظهر الفنى — ٣

استطراد ...

الفن الطولونى بداية لتطور عظيم — العصر الاخشيدى عصر انتقال إلى فنون الفاطميين — الفن الفاطمى فن مصرى غنى بالتقاليد الأجنبية — الفن الأيوبى يقتبس من فنون السلاجقة وشمال العراق — قوة المؤثرات الأجنبية — فن المماليك فن مصرى رغم ما به من عناصر أجنبية — روعة الفن المعمارى المملوكى والفنون الفرعية — فن متميز عن فنون البلاد الأسلامية الأخرى — عتاد فنى لم يجتمع لأمة اسلامية — أثر الأتراك فى انحطاط الفنون المصرية زمناً — الفن فى العصر التركى — الفن فى عصر محمد على الكبير — فى العصر الأخير .

وفيما يلى وصل سريع للحقائق :

١ — بزغ بالعصر الطولونى فجر الفنون الاسلامية فى مصر. ولقد رأينا أنها لم تكن فنوناً دخيلة على هذه البلاد إلا فى وجه من وجوهها ، فقد ثبت لنا أن رجال الفنون والصناعات فى القرنين الأول والثانى الهجريين كانوا من المصريين الوطنيين الذين أسلموا أو ممن بقوا على دينهم المسيحى . بهذا تقول « ڤان برشم »(١) فتؤيد ما نذهب اليه من استمرار التقاليد المصرية فى الفنون الاسلامية . وكانت تلك التقاليد قد تطورت حتى أدركت العصر الاسلامى

---

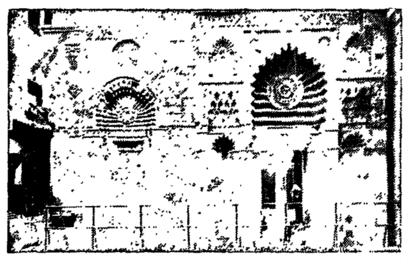
(١) (Van Berchem.) — كتاب العمارة الاسلامية الاولى Early Muslim Architecture ص ١٦٤ و ١٦٥

مزيجاً من فنون مصر القديمة والبيزنطيين والساسانيين .

يقول مؤلف «الفن الاسلامي في مصر» : «وكما عمل الوطنيون في الحياة الاجتماعية على مسالمة العرب الفاتحين وارضائهم ، فان الصناع منهم ما لبثوا ان بدأوا تطوراً منتظماً كان أهم عوامله إرضاء المسلمين والتحبب اليهم وانتاج ما يوافق ميولهم وتعاليم دينهم» — ونحن نرى فى ذلك بداية انقياد الفن المصرى وخضوعه للاسلام وخدمته الجلىّ لاغراضه وتعاليمه ؛ فقد رأينا رجاله يتابعون خدماتهم فى ميدان الفنون كما تابعوا خدماتهم للعرب الفاتحين فى ميدان الأدارة — بل لقد كانت خدمات المصريين للعرب فى ميدان الفن أطول وأبقى على الايام من خدماتهم لهم فى ميدان الادارة — ذلك أنه بمجرد أن عربت الدواوين ، ومرنَ العرب على الحكم ، أصبح فى مكنتهم الاستغناء عن خدمات المصريين — ولم تكن الحال كذلك فى ميدان الفنون ، فقد قدّر للمصريين أن يبقوا قائمين على شئونها آمادا طويلة ، لأن لهم فيها مهارة موروثة لم يكن للعرب بد من الاعتراف بها والاذعان لها . وكان العرب فى ذلك فطنين أشد الفطنة الى المصلحة العامة التى كانت دائماً رائدهم فى كل ما صدر عنهم من تصرف فى شئون البلاد التى انتهت مقاليدها الى أيديهم .

ودرج ذلك التطور الفنى فى سبيله حتى لحق العصر الاخشيدى الذى يعتبر عصر النقلة من فنون الطولونيين الى الفنون الفاطمية ، وأخذت المؤثرات العراقية تتلاشى من فنون وادى النيل ، وبدأت تعود الى هذه الفنون تقاليدها المصرية الصميمة — وظهر على ضفاف النيل فى العصر الفاطمى فن اسلامى رائع ، فيه من الاصول المصرية القديمة ، ومن تقاليد الشرق والغرب مزيج يثير الاعجاب بجماله وقوة ائتلافه .

* * *



٢ — ولقد كان العصر الفاطمى عصر انقلاب فى التاريخ المصرى السياسى، يرتبط ارتباطا وثيقا بتاريخها الدينى — ففيه تحولت الحكومة الى «الشيعية» المتطرفة، وكان لذلك أثره على وجوه الفكر المختلفة — والحق أنه قد أخذ يحل بالأراء المصرية فى الحياة وطرائق الحكم، وفى الفنون والآداب ووجوه الثقافة عامة تغيير جوهرى، هو نتيجة لسيادة الآراء الفارسية على البلاط الفاطمى، وسيطرة الفن الفارسى وغلبة أساليبه على الفنون المصرية المحلية (١) — حتى لقد يصح القول بأن الفن المصرى الفاطمى لون من الوان الفنون الفارسية الساسانية، مصرى الموطن.

والى جانب هذا الاثر الفارسى، تأثرت عمارة الفاطميين وفنونهم إلى حد بعيد بأساليب البربر فى شمال افريقية، وطرز الفنون الاموية الغربية فى الاندلس، منتقلة من أسبانيا بطريق شمال افريقية إلى المهدية، والقيروان، ومن ثم مع الفواطم، إلى مصر فى حكم «المعز لدين الله».

* * *

٣ — وكانت الدولة الأيوبية سلجوقية الطابع فى أغلب صور الحياة فيها، استجلبت إلى هذه البلاد أساليب «السلاجقة» فى التعليم وفى الفنون،

(١) راجع كتاب «كنوز الفاطميين»، «الدكتور زكى حسن» لترى كيف كان التأثير الفارسى على الفنون المصرية الفاطمية بالغا فى ميادين التصوير والخزف والنسيج وحفر الخشب

وجعلت من فنون البلاد ومن الفنون المستجلبة اسلوبا جديدا ، عرفت به مصر الأيوبية، به من الانسجام والتآلف ما يبعث على الارتياح والأعجاب .

ولا يكاد مؤرخ الفنون يفرق بين ما هو من العصر الفاطمى المتأخر، وما هو من العصر الأيوبى من صناعة الخزف مثلا — وهو مضطر بحكم اقتناعه بتطور الصناعة وانتقالها التدريجى من عصر الى عصر ، الى الحكم غير القاطع على التحفة الفنية — فتراه يقول : « هذه الفئة من الخزف ، اما فاطمية متأخرة ، أو أيوبية مبكرة » — إذ ليس إلى الجزم فى الحكم على التحفة الفنية من سبيل . وما يقال فى صناعة الخزف وتطورها، يقال مثله فى ميادين الصناعة الأخرى — اللهم الا بعضا من الصناعات، كصناعة النحاس المكفت بالفضة أو الذهب ، فأننا نلحظ فيها ما يبعث على الظن بأن منتجات هذا المعدن المنسوبة الى العصر الأيوبى ، إما مستجلبة من مراكز صنعها فى شمال الجزيرة فى الموصل ، أو مصنوعة فى مصر بأيد أجنبية حذقت اصول هذه الصناعة من قبل .

ومهما يكن من شىء، فقد كسب الأيوبيون لمصر تفوقاً فى ميدان الفنون الفرعيّة ، يضاف اليه ما كسبوه لها فى ميدان العمارة بادخالهم نظام المدرسة الاسلامية ، ثم ما حدث من ازدهار صناعة الخزف ذى الزخارف المنقوشة تحت الطلاء على عهدهم — وينهض ذلك كله دليلا على استمرار تطور الفنون المصرية واستفادتها من فنون البلاد المجاورة بطريق الاقتباس وهجرة الصناع .

* * *

٤ — ومن الحق علينا أن نقول أن التيارات الأجنبية التى بدأت تلحق



الفن المصرى المحلى منذ العصر الفاطمى ، كانت من القوة بحيث استطاعت أن تغزو فنون البلاد المحلية فى الصميم ، وأن تختلط بها اختلاط امتزاج غيّر من معالمها كثيراً ، وأخفى من طابعها الأصلى كل شىء تقريباً ، ومع ذلك لا يستطيع أحد ان يقول أن المصريين قد تنحوا عن العمل فى ميدان الفنون ، أو أن فن المماليك لم يكن فناً مصرياً — فان به من التقاليد القديمة ما يكفى للاحتفاظ بالصفة المصرية لهذه الفنون، وإن طغت عليها الأساليب الأجنبية السلجوقية والمغولية والسورية والصليبية وغير ذلك من التيارات التى أصابت هذه الفنون من شمال الجزيرة العراقية والأندلس .

ولا يسع الباحث فى فنون المماليك إلا الاعجاب بها فى اجمالها وتفصيلها . وأنه ليكفى أن تنظر إلى مسجد من مساجد المماليك كمسجد المؤيد أو قلاوون أو «السلطان حسن» ، حتى تأخذك روعة البناء ويبهرك جماله ، لمجرد النظر اليه ، فاذا تفرست فيه تفرس الباحث ، أدركت المدى البعيد من التقدم الذى بلغه رجال الفنون فى عصر المماليك فى فن العمارة ، وتملكك الاعجاب البالغ بتلك المقدرة الفائقة على حسن الاقتباس ، ومهارة الجمع والتأليف بين الأصول ، حتى خرج من كل ذلك فن معمارى رائع عظيم الانسجام . وأنك لا تجد ، وأنت تطوف الممالك الاسلامية ، فناً معمارياً يشبه هذا الفن — فهو فريد فى نوعه ، مصرى





لا يشاركه فى صفاته فن معمارى آخر من فنون الممالك التى أوجدها الاسلام .

* * *

وفى ميدان الفنون الفرعية لا يقل اعجابك بمخلفات المماليك الرائعة ، وأن جولة واحدة فى الأقسام الاسلامية بمتاحف أوروبا ، وفى دار الآثار العربية بالقاهرة ، لتكفى لاطلاعك على تقدم هذه الفنون وبلوغها غاية الكمال فى مختلف نواحيها — فقد اجتمع لمصر من طريف الفن وتليده ما لم يجتمع لأمة اسلامية ، فهذه « التحف النحاسية » الرائعة المكفتة وغير المكفتة ، وتلك «المشكاوات» المموهة بالمينا ، والمنسوجات الحريرية الجميلة الصنع ، والخزف بأنواعه ، والأسلحة البديعة ، والأخشاب المطعمة بالعاج والأبنوس ، وصفائح النحاس المطروق ، والواح النحاس المخرم بالزخارف العربية التى تجل عن الوصف ، تحلى بها أبواب المساجد والعمائر ، وتلك اللوحات الرخامية ذات النقوش البديعة ، وتربيعات « القاشانى » التى تحاكى صناعة « قاشان » الايرانية ، ونقوش الخشب ، والمصاحف الخطية الضخمة المذهبة الصفحات — تقوم شاهد عدل على ما بلغه فن مصر الاسلامية فى عصر المماليك . ولا غرو ، فقد كان الفن مظهراً من أروع مظاهر الحياة المملوكية ، المليئة بشتى معانى القوة والجلال .

* * *

٥ — بعد هذه السطوة السياسية ، وذاك التفوق الفنى العظيم الذى بلغته

البلاد على عهد المماليك ، أصيبت البلاد بكارثة الفتح العثمانى منذ عام ١٥١٧ للميلاد ، وفقدت حيناً من الدهر سلطانها السياسى، واستحالت من دولة واسعة الأطراف إلى ولاية عثمانية انحط كل شيء فيها إلى الدرك الأسفل، وظهر أثر ذلك الانحطاط سريعاً فى عالم الفنون، فقد جرّد السلطان العثمانى «سليم الأول» مصر من مهرة صناعها، إذ أرسل الكثير منهم إلى القسطنطينية .

وانتهى بهذا الحادث طراز العمارة المملوكى، وأخذت المسح البيزنطية والتركية تظهر فى فنون مصر المعمارية منذ الفتح العثمانى ؛ وكان ذلك إيذانا بذهاب تلك الروعة التى وسمت الطراز المملوكى، على أن القضاء على الأساليب المملوكية للعمارة لم يكن تاماً ، فقد قاومت بما فيها من خصائص قوية هذا الغزو الجديد، وصمدت له — وهذه مساجد «سليمان» باشا و«سنان» باشا و«الملكة صفية» و«أبى الذهب» و«البرديني» ما تزال تحتفظ بكثير من مزايا الطراز المملوكى رغم انشائها فى العصر التركى. أما الفنون الصناعية فقد أخذت فى التدهور والانحطاط السريعين حتى انتهت إلى الزوال .

ولحق التقهقر هذا الطراز العثمانى المعمارى نفسه منذ أواخر القرن الثانى عشر الهجري ، قبيل الحملة الفرنسية وظهور محمد على الكبير .

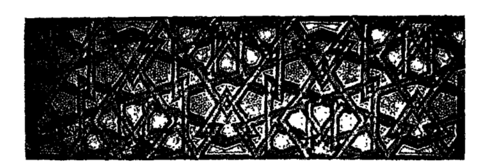
* * *

٦ — واستحدث محمد على باشا طرازاً جديداً فى العمارة ، جمع فيه

بين الطرز المصرية والعثمانية والغربية الفرنسية ؛ وما لبثت طرز العمارة أن اختلطت بعد ذلك اختلاطاً جعل منها فوضى معمارية ، وأخذت الروح الأوروبية فى البناء تتغلب على المبانى المصرية فى القرن الأخير تغلباً لا سبيل إلى رده ، فقد أقيمت المبانى العامة على الطرز الأوروبية محاكية مبانى عصر النهضة الأوربية « الرنيسنس » ، والمبانى «الكلاسيكية» اجمالا .

أما مبانى الأفراد فى الوقت الحاضر فلا تتبع نسقاً خاصاً ، ولا ترعى أصولا بذاتها — وللابتكار فيها مجال فسيح .

* * *



المظهر الأدبي — ١

ســـيادة العربيـّة

الصراع بين القبطية واليونانية - نهوض اللغة القبطية القومية ومنافستها لليونانية - لغة السريان لغة العلم - الآداب القبطية آداب دينية بحت - العلم الاسكندرى - نقل العرب عنه - العربية تغزو العلم ودواوين الحكومة - تجد طريقها إلى الكنائس - حركة نقل من القبطية واليونانية إلى العربية فى القرن الرابع الهجرى - وسائل انتشار العربية : اختلاط العرب بالمصريين - العربية لغة الدين الجديد - الرغبة الملحة فى الاستعراب - الضرورة المعاشية - قبوع القبطية فى الأديرة والكنائس - القبطية تصبح لغة كالية .

كان آخر عهد الاسكندرية بالعلم اليونانى، ذلك اللون من الجدل الفلسفى الذى اشتد بين أنصار المسيحية والوثنيين . وهو نوع من العلم الدينى احتاج الى الاستعانة بالفلسفة والمنطق اللذين راجت دراستهما فى العصر الرومانى، مقترنة بحركة الجدل الدينى أشد الاقتران واقواه .

وكانت لغة البلاد الرسمية فى العصر الرومانى هى اليونانية(١) ، غير أنه منذ القرن الثالث الميلادى، اخذت الروح القومية المصرية فى الظهور والقوة، وكان من أثر ذلك أن بدأ رجال الدين المصريين يعظون الناس باللغة المصرية بعد أن كانوا يعظونهم باليونانية — لغة الحكومة والكنيسة الرسمية . وبدأ

(١) كترمير — ابحاث فى الأدب المصرى واللغة المصرية .

القبط بعد ذلك التاريخ يغفلون الآداب الاغريقية ، ويكتبون أدبهم الخاص بلغتهم الخاصة ، فدونوا بها تآليفهم فى حياة القديسين وتواريخ الشهداء وكتبوا بها الأشعار .

وسارت اللغة القبطية جنبا الى جنب مع اللغة اليونانية التى بقيت لغة البلاد الرسمية بعد الفتح العربى زمنا ليس بالقصير ، غير أنه على الرغم من نهوض اللغة القبطية فى العصر الرومانى لم ينتج القبط بها أدبا ينافس الآداب اليونانية التى ظلت صاحبة الغلبة والنفوذ — والحق أن اليونانية بقيت بالنسبة لجمهور الأدباء طوال العصر الرومانى ضرورة ثقافية لا غنى عنها . وبها كتب الأدباء والشعراء نثرا وشعرا(١) . ومن اشهر هؤلاء فى القرن الرابع الميلادي « لوسيانيوس » صاحب كتاب « محاورات الموتى » و« اخيلاس تاتيوس » المؤلف الروائى ؛ ومن أذيعهم صيتا فى القرن الخامس ، الشاعر المصرى « فيرس الأخميمى » وفى القرن السادس ، الشاعر الطيبى « كريستودورس » . ومن العلماء المعروفين فى هذا العصر « ديسكوريدس » النباتى المصرى المعروف ، صاحب كتاب « خواص العقاقير » الذى حرص العرب على اقتنائه وصوروه فى العـراق .

والى جانب اللغة اليونانية والآداب اليونانية ، كانت هناك لغة ثالثة هى لغة السريان الذين هاجروا إلى مصر تحت ضغط الغزو الفارسى على بلدان آسيا الغربية ، وعكفوا على العمل فى اديرة وادى النطرون(٢) . ومن عجب أن تصبح لغة السريان هذه لغة العلم ، ولا سيما العلم الطبى ، فبها دون سواها كانت تدرس

---

(١) لجنة التاريخ القبطى — تاريخ الأمة القبطية ص ٢٣٤ وما بعدها

(٢) بطلر — فتح العرب لمصر : (الفن والأدب) .

العلوم الطبية فى القرنين السادس والسابع الميلاديين — وسايرت هذه اللغة السريانية لغة البلاد الرسمية اليونانية ولغتها القومية القبطية، وبلغ من شيوعها أن ترجم الكتاب المقدس اليها، وكتب بها القس « أهرون » الاسكندرى مقالاته فى الطب، وغدت السريانية بالاجمال ضرورة من ضرورات العصر الأدبية لا تقل شأنا من حيث هى لغة علم عن اليونانية ذاتها، وحذقها كثير من محبى العلم، وخدموا بها العرب خدمة جلى فى عصر النقل الأعظم.

* * *

وعلى الرغم من قوة هاتين اللغتين اليونانية والسريانية، كانت لغة البلاد القومية تكافح وتناضل لتتخذ لنفسها مكانة تليق بأمة تطمح الى الاستقلال وتعمل له جاهدة : فقد استطاع الاقباط أن ينفصلوا عن جسم الدولة انفصالا روحيا تجلى فى اتخاذهم مذهبا دينيا يخالف المذهب الرسمى، كما تجلى فى النهوض بفنونهم الخاصة، وفى إحياء لغتهم القومية، واستخدامها فى الوعظ والصلاة والتأليف، فيها كتب المؤرخ « حنا النقيوسى » ديوانه المشهور، وأن يكن قد دون جزءاً منه باليونانية : وكتب بها الرهبان تواريخ القديسين والشهداء وأخبار البطارقة، واليها ترجم « العهد الجديد ».

* * *

ولا نستطيع أن نبالغ فى قيمة الآداب القبطية، فلم تعد أن تكون آداباً دينيـة فى مجموعها(١). وليس للقبط انتاج أدبى بحت يمكن أن يفخروا

---

(١) بطلر — « الكنائس القبطية القديمة » — المجلد الثانى ص ٢٤٧

Butler, The Ancient Coptic Churches of Egypt.

به(١) ، اللهم إلا قليلا من مأثور الحكم وبعض الأشعار . وظل هؤلاء بمعزل عن الاسكندريين ورثة العلم اليونانى ، ولعلهم كانوا ما يزالون على اعتقادهم القديم بأن العلم الاسكندى علم وثنى، لا يجدر بهم أن يتناولوه، ولا أن يخوضوا فيه . هكذا أدرك العرب الاسكندرية وبها من العلم اليونانى بقية أفسدها الزمن ، أهم ما فيها مقالات عن طب جالينوس ، ومأثور من حكم « بقراط » وشيء كثير من التنجيم والمعجزات(٢) ، وعلم الصنعة (الكيمياء)، وفلسفة ممتزجة بالدين أشد الامتزاج ، ترمى إلى خدمة المثل الأعلى المسيحى ، على أساس من مذاهب أفلاطون وأرسطو .

وكان العلم الدينى أهم ميدان جال فيه مسيحيو الاسكندرية . وأغلب الظن أن هؤلاء المسيحيين لم يكونوا من القبط ، فقد كره القبط دراسة فلسفة الاسكندرانيين كراهية كبرى، ولم يحاولوا كما حاول غيرهم من الطوائف المسيحية، أن يستخدموها لتقوية العقيدة المسيحية ، بل كان لهم أسلوبهم الخاص المعروف فى الدفاع عن المسيحية. لهذا كله — وفد العرب على القبط فلم يجدوا بين أيديهم علماً أو أدباً أو فلسفة ، بل وجدوا عندهم دراية فى الفن لا تجارى ولا يُجحد فضلها . ولم يفت العرب أن يستفيدوا مما وجدوا فى الاسكندرية من طب القدماء وعلومهم ، فنقلوا منهما الكثير فى العصرين الأموى(٣) والعباسى .

---

(١) لم يخرج القبط فى ذلك عن سنن أجدادهم القدماء الذين كانت كل آدابهم لاهوتية — يشهد بذلك كتاب الموتى وتؤيده متون الاهرامات .

(٢) راجع بطلر — « فتح العرب لمصر » (الفن والأدب)

(٣) يروى عن خالد بن يزيد الأموى أنه استخدم عدداً من العلماء ذوى الدراية باللغة السريانية فى نقل كثير من معارف الاسكندريين فى علم الكيمياء — ماير هوف : نهاية مدرسة الاسكندرية La Fin de l'Ecole d'Alexandrie.

ومن أشهر الناقلين عن العلم الاسكندى (اليونانى) الطبيب «ابن أبجر الكنانى» الذى استخدمه الخليفة «عمر بن عبد العزيز» فى نقل الطب إلى العربية، و«أبو الفرج بن العبرى» صاحب الفرية المشهورة عن احراق العرب لمكتبة الاسكندرية ومؤلف كتاب «مختصر الدول»، «وابن الناعمى» الذى نقل إلى العربية كتاب «فورفيروس الصورى» تلميذ أفلوطين الاسكندرى، «وسرجيوس الرّسعنى» و «حنين بن اسحق» رأس المدرسة الطبية الناقلة فى بغداد، وابن أخته وكثير غيرهم.

* * *

ومما يثير الدهشة والعجب، أن ينزل العرب بلداً كمصر، لغتها الرسمية يونانية، وبهامن اللغات الأخرى السريانية والقبطية: الأولى لغة العلم، والثانية لغة مناهضة للغة الدولة الرسمية، يعمل القبط غاية جهدهم فى نشرها، ويتخذون منها أداة لهدم ما بينهم وبين الدولة الحاكمة من روابط — فلا ينقضى طويل زمن، حتى تغزو العربية هذه اللغات جميعاً فى مكامنها، فتقضى على أولاهما فى دواوين الحكومة قبل انصرام القرن الأول الهجرى، وتستخدم الثانية وسيلة لنقل علوم الاسكندريين، ولا يكاد ينقضى القرن الثالث الهجرى حتى تجد العربية سبيلها إلى كنائس القبط، فوعظ بها رجال الدين، وكتبوا بها سيرَ الآباء المسيحيين وخطوا بها الأناجيل — وفى القرن الرابع الهجرى قام الأسقف «ساويرس بن المقفع» بمساعدة طائفة من رجال الدين الأقباط بنقل ما وجدوه من القلم القبطى والقلم اليونانى إلى العربية.

وكانت العربية فى ذلك كله قوية جارفة، لم تقو اليونانية أو السريانية أو

القبطية على الوقوف فى وجهها .

كان انتشار العربية غداة الفتح محدودا فلم يكن يتكلمها إلا العرب فى مضاربهم ومن جاورهم من أهل البلاد ، ممن دفعتهم الضرورة المعاشية إلى تعلمها . وكان الاسلام فى ذاته دافعاً كافياً لمعتنقيه من المصريين إلى تعلم العربية، كى يتمكنوا بها من قراءة الكتاب والسنةوتفهم أصول الدين ؛ وكان لانسياب العرب فى الريف المصرى فى كل خريف ، واتصالهم بالمصريين ، أثر كبير فى نشر اللغة العربية بين طبقات المصريين .

ثم جاءت حركة الاستعراب الكبرى وذهب القبط فيها إلى إهمال كثير من مظاهر قوميتهم ، وسارعوا إلى اعتناق الدين الجديد، واتخاذ لغته فى أمورهم الخاصة. وفى معاملاتهم مع المسلمين. وتحمل لنا أوراق البردى المتخلفة من العصر العربى الأول ، والمحفوظة بقسم الأوراق البردية بدار الكتب المصرية(١) أصدق الأدلة على شيوع استعمال العربية بين القبط . وأصبحت اللغة القومية (القبطية) فى المحل الثانى بالنسبة للغة العربية التى غدت لغة الحكومة والأفراد جميعا .

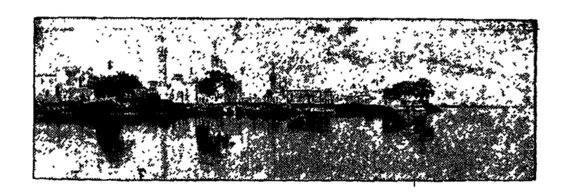
وقبعت اللغة القبطية فى الكنائس والأديرة، ولم تنج من مهاجمة العربية لها ، فقد غزت هذه الأخيرة الكنائس والأديرة ، وشاركت اللغة القومية فى مهمتها الدينية ، فكانت المراسيم الكنسية تُصدر بلغة البلاد الأصلية، ثم تشرح بالعربية ليتمكن رجال الدين الأقباط من فهمها ! إذ بغير ذلك لم يكن

---

(١) وهى التى ضمنها الأستاذ « جروهمان » مؤلفه عن أوراق البردى العربية .

إلى فهم القبطية من سبيل . وأصبحت اللغة القبطية منذ ذلك الحين لغة كمالية لا يحذقها إلا المثقفون من المصريين ، على نحو ما كان الحال غداة الفتح حين كان العالم يفخر بحذقه لغة اليونان أو لغة السريان — وكما هو الحال الآن بين الطوائف المثقفة التى تعرف اللاتينية أو الأغريقية معرفة ترف فكرى ؛ وهكذا قضت العربية بالتدريج على لغات اليونان والسريان والقبط ، وكتب لها فى عالم الثقافة نصر كبير .

وساعد تفوق العربية على خلق حياة أدبية مصرية اسلامية ، كانت بدورها مظهرا من مظاهر مصر الاسلامية .



ثقافة جديدة وأدب جديد

مصر مركز ثقافي اسلامي هام ـ تنشط بها الدراسات الدينية ـ رواة القراءات والحديث ـ الجدل بين المالكية والشافعية واسلوبه ـ علوم النحو والتاريخ ـ بعض كبار المؤرخين ـ فريق من من فطاحل الأدباء والعلماء يفد إلى مصر ويفيد من شهودها ـ العرب يشغلون بهذه الدراسات الأسلامية عن علوم الاقدمين ــ أثر الجدل الديني فى الأدب ـ قلة الآثار الأدبية المتخلفة عن هذا العصر ـ تبعية مصر للعراق تبعية أدبية ــ أثر وضع دواوين الانشاء فى رقى اللغة ـ لغة التأليف ولغة التراسل .

كان من اثر سيادة العربية على غيرها من لغات اليونان والسريان والقبط، ان أصبحت مصر مركزا من مراكز الثقافة الاسلامية عظيم الاهمية . ولقد كانت هذه الثقافة الاسلامية فى القرن الأول الهجرى ثقافة دينية ، الغرض منها تفهم القرآن والحديث وشرح ما غمض من أصول الدين .

نشطت دراسة هذه العلوم الدينية فى مسجد «الفسطاط» وكانت لا تتعدى تفسير القرآن والقراءات وشرح الحديث ، وكان يقوم على أمرها عدد من الصحابة الذين وفدوا على مصر فى موجة الفتح(١). واشتهر من رواة القراءات بالجامع العتيق بالفسطاط «عثمان بن سعيد» المصرى القبطى الاصل الذى اسلم أجداده وتعلموا العربية و «ابن يسار» المصرى أبو يعقوب الأزرق يوسف بن عمرو(٢) أحد تلاميذه ، وكان كأستاذه حاذقا لرواية القراءات .

والحق أن الصحابة الذين وفدوا على مصر أكثروا من رواية الحديث

---

(١) راجع حسن المحاضرة للسيوطى ــ الجزء الأول طبع القاهرة ١٣٢٧ هـ ص ١١٨ / ١٤٠

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ــ الجزء الاول طبع القاهرة ١٣٢٧ هـ ص ٢٠٧

وشرحه ؛ ومن أشهرهم «عبد الله بن عمرو بن العاص» و «عبد الله بن وهب» صاحب «الجامع فى الحديث» — وفيه جمع كل ما امكن جمعه من الاحاديث النبوية ، وكان الحديث قبله متفرقا . وكاد يبلغ «ابن وهب» منزلة الأفتاء بمصر . وهو يمثل فى مصر رأى المالكية أصدق التمثيل . ومن جامعى الحديث المشهورين «ابن لهيعة الحضرمى» واستاذه «يزيد بن أبى حبيب» العالم فى الفقه والحديث ،وصاحب الدراية فى علم التاريخ ، وهو الذى اعتمد عليه «ابن عبد الحكم» فى وضع كتابه «فتوح مصر» .(١)

ومن أئمة الفقه والحديث «الليث بن سعد» الذى يحدثنا عنه السيوطى طائفا فى طلب العلم ناقلا له عمن صادفهم من التابعين — وكانت له الفتيا فى مصر ، لا يكاد يبرم قاضيها أو واليها أمراً الا استشاره فيه .

* * *

ووجدت الآراء الفقهية فى مصر جواً طلقا ، ومرتعا خصبا ، ففيها انقسم المالكية على انفسهم على اثر وفود «الشافعى» على مصر ، ونشر مذهبه فى ربوعها . وكثيرا ما احتدم الجدال بين المالكية والشافعية فى «المسجد العتيق» الى درجة اضطر معها بعض الولاة الى اغلاق الجامع ، وظل ذلك الاحتدام قائما حتى عصر الاخشيد ، وقد عرف عنه أنه اغلق مسجد الفسطاط لهذا السبب فى وقت ما .

والشافعى أول من أدخل بمصر طريقة «المناظرة» العلمية ، وكان فى طريقته يشبه الحكيم اليونانى «سقراط» فى أنه كان يناظر ليستفيد من علم مناظره ، أو ليصلح من خطئه — وكان الشافعى على درجة عظيمة من الفصاحة وقوة البيان ، وكان لذلك قوى التأثير فى تلاميذه ومناظريه ، وكان

(١) محمد كامل حسين — «فى الادب المصرى الاسلامى» ، ص ٤١ / ٤٢

اسلوبه العلمى ذا أثر بالغ فى حركة التأليف والتصنيف ، اذ سلك مسلكه فى البحث كثير من العلماء الذين أعجبوا بطريقته .

* * *

كان انتاج العصر العربى الأول انتاجا دينيا فى جملته ، وكان ذلك ضروريا لتفهم اصول الدين ، فلقد اتضحت بهذه الدراسات نواح من الدين كانت أول الأمر احكاما كلية مغلقة تحتاج الى شروح وتفسيرات .

على أن الحركة الثقافية لم تقتصر على علوم الدين ، بل لقد كانت للمصريين جولات فى علوم النحو والتاريخ ، واشتهر من النحاة فى مصر « بنو ولاّد » واشهرهم محمد التميمى النحوى المشهور بولاد — وهو أول من وضع كتبا فى النحو فى ديار مصر ، وكانت قبله تجهل هذا الضرب من العلم ، وهو تلميذ « للسهيلى » أحد تلاميذ « الخليل بن احمد الفراهيدى » واضع النحو . ومن النحاة «الدينورى» احمد بن جعفر صاحب «المهذب » فى النحو ، ومنهم « أبو النصر » المصرى تلميذ « الزجّاج »(١) — وبفضل هؤلاء قامت بمصر « مدرسة نحوية » خالفت آراؤها آراء العراقيين .

* * *

ووفد على مصر ابن هشام صاحب السيرة المشهورة ، ومحمد بن موسى الواسطى ، وابن جرير الطبرى ، وابن قتيبة — وكان لوفودهم عليها ومقامهم فيها زمنا — أعظم الاثر فيما وضعوا من تصانيف فى الأدب ورواية الأخبار والتاريخ . ومن اشهر كتاب التاريخ «ابن عبد الحكم» صاحب « فتوح مصر وأخبارها » وهو المصنف الذى لا يكاد يهمله مؤلف يؤرخ لمصر فى العصر

(١) محمد كامل حسين — « فى الادب المصرى الاسلامى » ص ٦٥

العربى الاول ؛ وهو من أقدم المؤرخين المسلمين الذين سبقوا « الكندى » فى وضع كتب الخطط .

ومن المؤرخين الذين ظهروا فى مصر غير ابن عبد الحكم ، « ابن يونس المصرى» و «الكندى» و «ابن الداية» صاحب « المكافأة » — وكلهم أعلام تقرع آذاننا اسماؤهم الفذة ، وعليهم اعتمد المؤرخون المحدثون إعتماداً كبيراً ، وقدرهم المستشرقون حق قدرهم ، وافادوا من مؤلفاتهم اعظم الفائدة وأجلها .

* * *

وهذه العلوم التى عنى بها المسلمون الأوائل فى مصر علوم عربية بحت ، تمت الى الدين واللغة بأقوى الاسباب ، وتجاوز ذلك الى ميادين أخرى — وهى أثر من آثار الاسلام المباشرة فى هذه الديار . وقد شغل بها العرب عن دراسة ما بقى بمصر من علوم القدماء ، ومهدوا بها السبيل الى حركة نضوج أدبى صاحبت حركة النضوج السياسى ، وأفصحت عنها .

وانتجت حركة الجدل الدينى بين المالكية والشافعية أثرها المحمود فى النثر العربى فى مصر — والادب يفيد كثيراً من الخلافات بانواعها ، ففى أتون هذه الخلافات تحتدم الافكار ، وينصقل اللفظ ، وتجود صنعة الكلام .

* * *

شغل مسلمو مصر بأحداث السياسة طوال القرنين الاول والثانى الهجريين عن التفوق فى العلوم أو الآداب والتبريز فيهـا . والحق أن هـذه الاحداث كانت همهم الصارف عن كل شىء ، فقد كان الشعب الجديد جد مشغوف بالمساهمة فى حوادث العالم الاسلامى السياسية ، والظهور على مسرحها كما كان أفراده من ناحية أخرى يعملون على الاندماج والوحدة القومية . ولا جدال فى أنه سبق تكوين هذه الوحدة صراع عنيف بين اللغة القومية

القبطية ولغة العرب الفاتحين ، انتهى على كل حال بتفوق العربية وحلولها محل القبطية واليونانية معاً ، كما انتهى الحال فى ميدان السياسة باستعراب القبط ودخولهم افواجا فى الدين الجديد ، وادعائهم الاصل العربى ، وحرصهم على الاستمساك بالعروبة — وعلى الرغم من هذه الصوارف ، نشأت فى مصر بعض المدارس الفقهية التى اتخذت من الجامع العتيق فى الفسطاط مكانا للتناظر والجدل ، وهو ذلك الجدل الذى انتج بعض الآثار العلمية والادبية على نحو ما بينا .

* * *

وكان من أثر تبعية هذه البلاد للخلافة الاموية فى الشام والخلافة العباسية فى العراق ، مدة قرنين ونصف من الزمان ، أنه لم تنشأ بها مذاهب مستقلة فى العلم أو الادب — اللهم الا فى اليسير ، ولم يكن لها من حظ المساهمة فى ترجمة علوم الاقدمين من الفرس واليونان والهنود ما كان للعراق ، سوى ما كان من ترجمة بعض كتب الطب والكيمياء . ويفسر ذلك فى نظرنا عزوف المصريين من القبط عن الثقافة اليونانية الاسكندرية ، وجهلهم التام بها ، واضطراب الحالة السياسية فى مصر فى أعقاب الفتح ، اضطرابا ظهر فى كثرة الفتن والثورات الداخلية على طول هذا العصر . وهكذا لم يساهم أهل مصر ، كما لم يساهم العرب الفاتحون فى حركة النقل (الترجمة) عن علوم الاقدمين ، سيما وقد كانت بالاسكندرية بقية من علوم اليونان عند فتح العرب لهذه البلاد — عزف عنها الأولون لاعتبارهم أياها ثقافة وثنية لايجمل بهم أن يلموا بها ، وانصرف عنها الآخرون بشواغل الحرب والسياسة .

* * *

ومما يؤسف له ألا يخلف لنا هذا العصر العربى الاول آثاراً أدبية ذات

بال ، اللهم الا قليلا من الرسائل التى كان يبعث بها ولاة مصر الى الخلفاء أو الى عمالهم على الاقاليم ، وشيئا من المقطوعات الشعرية التى لا تعدو أن تكون بضعة أبيات لهذا الشاعر أو ذاك . ومرجع ذلك أن النابغين من الكتاب ، ونقصد بهم كتاب الادب البحت ، والشعراء ، كانوا ينزحون دائما الى مقر الدولة الاسلامية الكبرى ، طلبا لعطاء الخلفاء .

وقصارى ما نستطيع قوله ، أن لغة الأدب فى هذا العصر ، ان جاز أن نسمى تلك الرسائل أدبا ، كانت فى مجموعها ضعيفة التعبير قبل العصر الطولونى ، كما كانت لغة التأليف ركيكة يعتورها التعقيد الذى حرص عليه المؤلفون العرب .

ولقد يصح أن توصف عربية هذا العصر الاول بالضعف والركاكة اجمالا ، غير أن ضرورة التراسل بين ولاة مصر وخلفاء المسلمين استوجبت شيئا من العناية بلغة الرسائل بنوع خاص .

وكان لوضع دواوين الانشاء منذ أول الفتح أثره الطيب فى رقى اللغة ، فقد اختلفت كتابة الرسائل من حيث قيمتها الفنية عن كتابة التدوين التى لم تجاوز أن تكون تسجيلا للحوادث واثباتا للارقام ، قصد الرجوع اليها فى تحديد حقوق الأفراد وواجباتهم .

وفى العصر الطولونى ، كبر أمر ديوان الانشاء ، وقدر للعربية رقى بالغ على يد «ابن عبد كان» صاحب الرسائل المشهورة — الذى يصفه القلقشندى «بحسن الكتابة» ويصفه «ابن النديم» بالبلاغة والترسل والفصاحة ، ورسائله تشبه رسائل العراقيين ، وتسمو عن اسلوب العصر الاول — ذلك الاسلوب الذى كان يراد به التأدية — على أى وجه تجىء ، أو تصح .

* * *

المظهر الادبى - ٣

الشـــعر

حركة أدبية لابأس بها إلى جانب الحركة الفكرية الدينية - الشعر فى هذا العصر - الأغراض التى قيل فيها - وفود الشعراء على مصر ولا سيما فى ولاية عبد العزيز بن مروان - بعض من أشعار هؤلاء الوافدين - شعر فى العصبية والخلاف بين القبائل العربية - بعض أيام العرب فى مصر - شعر لا يتصل بالبيئة المصرية - يعبر عن حياة العرب الخالصة - يعطى صورة عن مصر المضطربة فى القرنين الأول والثانى الهجريين - شعر فى استعراب القبط - الاندماج بين المصريين والعرب وأثره فى اختفاء النعرة العنصرية من عالمى السياسة والآدب - شعر يمجد الاسرة الطولونية ويندب زوالها - هو تعبير صادق عن شعور مصر المستقلة .

اقتصرت الحركة الأدبية قبل الطولونيين على الدين وما يتصل به من حديث وفقه وتفسير ، وعلى اللغة وما يتصل بها من نحو وصرف ، وعلى رواية الأخبار على شكل قصص أو تاريخ .

ولكن هذه الحركة الأدبية المحدودة لم تلبث ان خرجت عن نطاقها الضيق وتطورت بتأثير الحوادث السياسية إلى حركة أدبية ذات بال ، تناولت النثر والشعر بقدر ما سمحت به ظروف البلاد فى تلك الحقبة المضطربة بالأحداث، المليئة بعوامل الانقسام — فقد ارتقت الكتابة الانشائية نوعاً ما منذ انشاء « دواوين الرسائل » وقيام بعض مشاهير الكتاب على أمرها . كان لهذا الزمن شعر قيل فى مناسبات مختلفة ، نجده متفرقاً فى كتب التاريخ منسوباً إلى قائليه . ويصعب أن نستخرج من الشعر القليل المنسوب إلى هذا العصر حكماً قاطعا على قيمة الآداب الشعرية ،

وإن كنا نستطيع فى كثير من السهولة أن نتعرف الأغراض التى قيلت فيها تلك الأشعار. وفى بحث كهذا — لا يهمنا كثيراً أن نحكم على قيمة هذه الآداب من الناحية الفنية ، بقدر ما يهمنا أن نستخلص منها ما يؤيد النظرية التى نريد أن نسوقها فى تطور الآداب نحو القومية .

ونحن إذا تتبعنا أسماء الشعراء الذين قرضوا الشعر فى هذا العصر العربى الأول ، هالتنا كثرة أسمائهم، دون ان يكون للواحد منهم من الانتاج الشعرى ما يستحق ذلك التخليد الذى ظفر به . وأن المامة سريعة بهذه الأشعار المتفرقة فى كتب الأدب والتاريخ ، لتظهرنا على موضوعات الشعر فى هذا العصر ، وهى فى مجموعها لا تخرج عن الأغراض الآتية :

(١) شعر فى التنافر بالعصبية على مألوف العرب الجاهليين .

(٢) شعر قيل فى استعراب القبط .

(٣) شعر قيل فى الهجاء والمدح والتنابذ بالأصل ، لا يعدو أن يكون صورة جاهلية .

(٤) شعر سياسى قيل فى سقوط الطولونيين والترحم على أيامهم .

* * *

ومما يسترعى النظر أنه لم يصلنا إلا اليسير من شعر الشعراء المقيمين ، فى حين وصلتنا قصائد كاملة من شعر الشعراء الوافدين على هذه الديار .

وكان أكثر وفود الشعراء على الأمير الأموى « عبدالعزيز بن مروان » والى مصر ، وبتعضيد منه ، لأنه كان يحب الشعر والشعراء ، ويجزل العطاء

لكل من وفد عليه منهم ، وكان لهؤلاء الشعراء الوافدين أعظم الأثر فى ازدهار الحياة الأدبية فى مصر ، في وقت لم يتسن للعرب المتمصرين فيه أن يتفرغوا للأدب ، لأن ظروف الحياة فى ذلك العصر المضطرب ، لم تكن لتسمح بشيء من هذا — وهى لم تسمح به قط إلا بعد أن هدأت ثورات القبط على الادارة العربية ، وسكنت الفتن بين البطون المختلفة ، واستعرب المصريون الأصليون وتمصر الأعراب .

ومن هؤلاء الشعراء الذين وفدوا على مصر فى ولاية عبدالعزيز بن مروان « أيمن بن خريم الأسدى » و « نصيب بن رباح » و « عبد الله بن الحجاج » و « كثير عزة » ، وكلهم مدحوا الأمير الأموى ، وأثيبوا على ذلك المديح وأجزل لهم العطاء فيه .

ومن قول « نصيب بن رباح » فى عبد العزيز بن مروان ، يمتدح جوده وعطاءه :

لعبد العزيز على قومه ... وغيرهم نعم غامرة
فبابك ألين أبوابهم ... ودارك مأهولة عامرة
وكلبك آنسُ بالمعتفين ... من الأم بالابنة الزائرة
وكفك حين ترى السائلـ ... ـين أندى من الليلة الماطرة
فمنك العطاء ومنى الثناء ... بكل محبَّرة(١) سائرة

* * *

ومن الشعراء المجيدين الذين وفدوا على مصر « ابن قيس الرقيات » الذى مدح عبد العزيز بن مروان ، ومن قوله فى عودة الامير من الاسكندرية إلى حلوان مقر حكمه :

---

(١) أى بكل قصيدة محبرة تسير فى البلاد وتنتشر .

غدوا من مَدرج الكَرْيُو ن(١) حيث سفينهم حزُق(٢)
فلما أن علون النيل والرايات تختفق
رأيت الجوهر الحكمى والديباج يأتلق
سفائن غير مقرفة إلى حلوان تستبق
محلٌ من يحلُّ به لذيذ عيشه ، غدق
يحل به « ابن ليلى » والندى والحلم والصدق

* * *

وممن مدحوا « ابن مروان » من الوافدين، الشاعر « الحزين الكنانى » الذى يقول فيه :—

الله يعلم أن قد جبتُ ذا يَمَنٍ ثم العراقين ، لا يثنينى السأمُ
ثم الجزيرةَ أعلاها وأسفلَها كذاك تسرى على الاهوال بى القدم
قالوا دمشق ينبيك الخبير بها ثم ائت مصر فثم النائل(٣) العَمَمُ(٤)
لما وقفت عليها فى الجموع ضحى وقد تعرّضت الحجّاب والخدم
حييته بسلام غير مرتفق وضجة القوم عند الباب تزدحم
فى كفه خيزران ريحها عبقٌ من كف أروع فى عرنينه شمَمُ

* * *

واشتد الخلاف فى مصر بين الزبيريين والامويين، وكان لهذه الفتنة شعرها الخاص— وفيها يقول « عبد الرحمن بن الحكم » المروانى متفاخراً : —

ألا هل أتاها على نأيها نبأ التراويح والخندقِ
بلغنا بفيلق يغشى الظراب بعين السمو لمن يرتقى

---

(١) جزء من اسكندرية البطالسة والرومان (٢) الحزُقُ : الجماعة من الناس وغيرهم — والوصف هنا للسفين (٣) النائل — النوال والعطاء (٤) العمم — الكثير الذى يعم

وسدت معافر أفق البلاد(١) برعد جيش لها مبرق
ونادى الكماة ألا فابرزوا لختام ! حتى ! — ولا نلتقى

* * *

كانت مصر طوال حكم الولاة الامويين والعباسيين مسرحاً للاضطراب يجىء من اشتداد الخلاف بين العلويين والامويين تارة ، وبين الزبيريين والامويين تارة أخرى ، وبين العباسيين والامويين فى أعقاب سقوط الدولة الاموية وقتل مروان بن محمد ، ولم يكن ذلك الاضطراب إلا صدى لتلك الحوادث الجسام التى كانت تجرى فى مقر الدولة — وكان لذلك أثره على الحركة الادبية اجمالا ، كما كان للفتن المحلية بين القبائل العربية النازلة فى مصر ، أو بين المصريين وحكامهم من العرب، نفس الاثر فى الشعر، فهذا شعر «لسعيد بن عفير» فى موسى ابن مصعب يشيد فيه بانتصار أهل الحوف (من العرب) عليه ، ننقله عن كتاب الولاة للكندي : —

ألم ترهم ألوت بموسى سيوفهم وكانت سيوف لا تدين لمُترَفِ
فما برحت به تعود وتبتدى إلى أن تروى من حمام مدنف
فأصبح من مصر وما كان قد حوى بمصر من الدنيا سليباً بنفنف
ولكن أهل الحوف لله فيهم ذخائر اذ لا ينفد الدهر تعرف

* * *

وكثيراً ما كان يمتنع أهل الحوف عن تأدية ما يفرض عليهم من الخراج ، ويثورون، كما حدث فى ولاية الحسين بن جميل (١٩١ هـ) وخلافة الرشيد ، الذى بعث إلى مصر بالقائد «يحيى بن معاذ» الذى تمكن من القضاء على حركة الحوفيين ، وأعاد الطمأنينة إلى ديار مصر ، وفى مدحه يقول «أبو عثمان السكرى» مخاطباً قبيلة قيس النازلة فى جهة بلبيس : —

(١) كذا

يا قيس عيلان انى ناصح لكمُ   أدوا الخراج وخافوا القتل والحربا
أنى أحذركم «يحيى» وصولته   فما رأيت له تقيا إذا غضبا

* * *

ومن أعظم الثورات التى شاهدها العصر العباسى وأكثرها خطراً ثورة «الجروى»، عبد العزيز بن الوزير «صاحب الشرطة» (١٩٨ هـ) على الوالى العباسى «المطلب الخزاعى» وفيها اتحد الجروى مع «السرىّ بن الحكم» واتفقت كلمتهما معاً على محاربة «المطلب الخزاعى» حتى إذا أجلياه عن مصر كان أمرها قسمة بينهما — على أن شيئاً من ذلك لم يتم فعلا، إذ استقل السرى بالبلاد بعد هزيمة الخزاعى دون أن يشترك معه «الجروى» فى أمر من أمورها. وقد حفز ذلك الشاعر «سعيد بن عفير» إلى لوم الجروى بقوله : —

ألا من مبلغ الجَرَوىّ عنى   مُغَلْغلة يعاتب أو يلوم
أقمت تنازل الأبطال حتى   تميَّز ذو الحفيظة والشَّتوم
وصلت بهم فما وهنت قواهم   وطير الموت دائرة تحوم
ولو هجمت جموعك حين جلَّوا   عليهم بادَ جمعهمُ المقيم
وكيف رأيت دائرة التوانى   أتتك بصنو نحس لا يقيم

* * *

واشتدت الفتن فى خلافة المأمون وحضر الخليفة لقمعها، وجعل أمر مصر قسمة بين الجروى والسريّ، ولكن لم تلبث الفتنة أن عادت على أشدها من جديد بنقض ما عقده المأمون بينهما من عهد، واقتتل الرجلان وهزم الجروى، وفر أمام عدوه — وفى ذلك يقول «المُعلّى الطائى»:

ألا هل أتى العراقين وقعة   لنا بحجى (بلقين) شيبت الوُلْدا
وما كان منا قتلهم عن جهالة   خطاءً ولكنا قتلناهمُ عَمْدا

. . . .

سنهدى إلى المأمون منا نصائحاً نضمنها طى الصحائف والبرذا

وفى هرب الجروى يقول « سعيد بن عفير » : —

ألا يا علىّ بن عبد العزيز إلى أين صرت تريد الفرارا

فلست بأول من كاده عدوٌ فكرّ عليه اعتكارا

* * *

ومن تلك الفتن الشعواء فتنة قام بها «دحية الأموى» فى خلافة المهدى ، أعلن فيها خروجه عن طاعة الخليفة العباسى . وجهدت الدولة فى محاربته ، فأرسلت اليه الجيوش بقيادة « الفضل بن صالح » — وفى ذلك يقول القائل مشيراً إلى يوم (فاو) ويوم (بويط) من قرى مصر ، بقوله : —

كيوم لنا لا زلتُ أذكر يومنا بفاو ويوم فى بويط عصبصب

ويوم بأعلى الدير كانت نحوسه على فئة الفضل بن صالح تنعب

وهكذا لم تخل الحياة العربية فى مصر فى العصر العربى الأول من أيام كأيام العرب الجاهليين — فهذا يوم « بويط » ويوم « فاو » ويوم « جناح والزعفران »(١) تذكرنا بأيام العرب المشهورة فى الجاهلية ، وتعيد إلى الذهن صورة قوية من صورها .

قال شعراء مصر فى يوم « جناح والزعفران » شعرا يشبه ما قيل فى يوم « داحس والغبراء » وظهرت فيما قالوا آثار العصبية الجاهلية واضحة(٢) فقد تنابذ « الخولانى » و « ابن بجيرة » شعراً ، ودافع كل منهما عن صاحبه دفاعاً فيه كثير من اتهام القضاة بالضلالة والكذب والزندقة(٣) .

---

(١) فرسا رهان — انظر قصة (جناح والزعفران) فى كتاب القضاة للكندى .

(٢) راجع ما قيل فى ذلك من الاشعار فى كتاب القضاة والولاة للكندى .

(٣) راجع ما قيل فى القاضى (العمرى) وفى القاضى (البكرى) فى كتاب القضاة .

وقد أدى تهالك القبط على ادعاء العروبة ، ورغبتهم فى نسيان أصلهم المصرى والتسجيل لهم كأعراب ، إلى أن نشأت القضية الكبرى المعروفة بقضية «الحرس» وفيها ادعى فريق من القبط أنهم من حوتكة من قضاعة ، وطلب إلى القاضى «العُمَرى» أن يسجل لهم نسباً عربياً ، فسجل لهم لقاء مال جمعوه له . وطعن فى صحة ذلك النسب فريق من عرب مصر ، وثاروا وهجوا القاضى العمرى ورموه بأقذع السباب . وفى ذلك يقول الشاعر «يحيى الخولانى» قولته المشهورة : —

ومن أعجب الأشياء أن عصابة   من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا
وقالوا أبونا حَوتَكٌ وأبوهم   من القبط علج(١) حبله يتذبذب
وجاءوا بأجلاف(٢) من الحوف فادعوا   بأنهم منهم سفاها وأجلبوا(٣)
ألا لعن الرحمن من كان راضياً   بهم رغماً مادامت الشمس تغرب

* * *

وهجا «المعلى بن المعلى الطائى» القاضى العمرى هجاء مراً لتجاوزه حدود الحق ، وتسجيله للقبط نسباً عربياً بقوله : —

تقضى نهارك بالهوى   وتبيت بين مغنياتك
فاشرب على صرف الزما   ن بما ارتشيت من الحواتك
إن كنت قد ألحقتهم   عرباً فزوجهم بناتك
ولتكشفن بما أتيـ   ـت صدور قوم عن مساتك(٤)
وكأننى بمنيـّـة !   تسعى اليك بكف فاتك

(١) العِلْج : الرجل الضخم القوى من كفّار العجم
(٢) الاجلاف جمع جلف وهو الرجل الغليظ الجافى .
(٣) أجلبوا : أحدثوا جلبة وضوضاء وشغباً .
(٤) مساتك : أصلها مساءتك أى سيئاتك .

أفقرته من ماله بقضية إذ لم يؤاتك
لا تعجلن أبا الندى حتى تصير إلى وفاتك(٤)

* * *

هذا الشعر الذى نسوقه من القرنين الأول والثانى الهجريين فى المدح والهجاء والتنافر ليس شعراً مصرياً بحال ، إذ ليس بينه وبين البيئة المصرية اتصال مباشر ، فهو لا يأخذ عنها ولا ينعكس عليها ، شأن كل أدب قومى ، وهو فى الحقيقة لا يعدو أن يكون شعراً عربياً كالشعر الذى كان يقال فى بلاد العرب ذاتها . ولا غرابة فقد كان هذا الشعر يمثل الحياة العربية فى مصر قبل العصر الطولونى أصدق التمثيل ، فهو صورة من صور المجتمع العربى الأول فى مصر ، بما عرف عنه من كثرة التنافر والتشاحن بين البطون ، والاعتزاز بعراقة الارومة العربية ، والترفع عن الاندماج فى الشعوب المحكومة مخافة اختلاط الأصل .

غير أن ذلك الدور من حياة الشعب لم يلبث أن انقضى بما اعتوره من شرور الفرقة ومضار التباعد ، وأدرك العرب حين حلت بهم النازلة الكبرى فى العصر العباسى، أى بعد أن حرموا من ديوان العطاء على يد المأمون ، أنه لا سبيل إلى بقائهم منعزلين عن أهل البلاد ؛ وقربت الشقة بين القبط وبين العرب بسبب كثرة اقبال القبط على الاسلام وذهابهم فى الاستعراب إلى أبعد حدوده .

وانتهت مرحلة الانتقال فى حياة الشعب المصرى باندماج القبط الذين اعتنقوا الاسلام فى العرب اندماجاً تنوسيت فيه الارومات والأصول

(١) القضاة والولاة للكندى (قضية الحرس) — القاضى الندى .

وتساوى فيه العربى بالمصرى، وغدت للعنصرين هموم مشتركة، وآمال وغايات واحدة .

* * *

ولقد أدى ذلك الاندماج بخير ما كان يرجى من نتائجه ، فتكونت به أمة مصرية اسلامية لا تنظر إلى الوراء وإنما تدأب على النظر إلى الأمام راغبة فى احتلال المكانة اللائقة بها بين الأمم الاسلامية القوية .

وانتهى ذلك النضال العنصرى الطويل بنضوج سياسى أدركته البلاد فى العصر الطولونى، لم تلبث ان ظهرت آثاره جلية فى كل مظهر من مظاهر الحياة المصرية .

وكان من آثار ذلك فى الأدب اختفاء تلك النعرة العصبية التى وسمت القرنين الأولين من الهجرة بطولهما بميسم جاهلى — إذ أخذت تظهر فى الأدب تدريجاً روح جديدة نلحظها فى ظهور شعر سياسى قوى يعتد بالحكام والجيش والدولة والمنشئات ، هو صورة صادقة لمصر الجديدة التى تم نضوجها فى خلال قرنين ونصف القرن تقريباً .

* * *

كان أول تعبير عن هذه الحياة الجديدة ذلك الشعر السياسى الذى أكثر الشعراء من قوله فى مدح الطولونيين والاشادة بمآثرهم كأسرة نزعت إلى الاستقلال عن الخلافة، ونجحت فى ذلك نجاحها المعروف. تأمل دلالة ذلك الشعر على تعلق الشعب بحكم هذه الأسرة التى اعتزت به وحاربت من أجله وأنشأت له ملكا مستقلا . أنظر إلى الشاعر « قعدان بن عمرو » يزهو بجيش ابن طولون فيقول :

طال الهدى بابن طولون الأمير كما
يزهو به الدين عن دين واسلام
قاد الجيوش من الفسطاط يقدُمها
منه على الهول ماض غير محجام
فى جحفل للمنايا فى مقانبه
مكامن بين رايات وأعلام
يسمو به من بنى سام غطارفة
بيض وسود (كرام) من بنى حام
حاط الخلافة والدنيا خليفتنا
بصارم من سيوف الله صمصام

* * *

ثم أنظر إلى هذا الشعر الذى يصور مصر «دولة ذات سيادة خارجية أحسن التصوير وأزهاه : —

أنت الأمير على الشآم وغيرها ... والرّقتين وما حواه المشرقُ
واليك مصر وبرقة وحجازها ... كلٌ اليك فؤاده متشوّقُ

* * *

ثم أنظر إلى قول « اسماعيل بن أبى هاشم » فى فناء الدولة :

قف وقفةً ببناء باب الساج ... والقصر ذى الشرفات والأبراجِ
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم ... بعد الاقامة أيّما ازعاجِ
كانوا مصابيحاً لدى ظلم الدجى ... يسرى بها السارون فى الأدلاجِ

كانوا ليوثاً لا يرام حِجاهمُ　　فى كل ملحمة وكل هياجِ
فانظر إلى آثارهم تلقى لهم　　علماً بكل ثنية وفجاجِ(١)

* * *

وقول « سعيد القاص » الشاعر المتفجع على زوال ملك الطولونيين : —

جرى دمعه بين سحر إلى نحرِ　　ولم يجر حتى اسلمته يد الصبرِ
وهل يستطيع الصبر من كان ذا أسىً　　يبيت على جمر ويُضحى على جمرِ
تتابع أحداث تحيّفنَ صبرَه　　وغدرٌ من الأيام والدهر ذو غدرِ
أصاب على رغم الانوف وجدعها　　ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهرِ
طوَى زينةَ الدنيا ومصباح أهلها　　بفقد بنى طولون والأنجم الزهرِ
. . . .　　. . . . .
وكان أبو العباس احمدُ ماجداً　　جميل المحيا لا يبيت على وتر
كأن ليالى الدهر كانت لحسنها　　واشراقها فى عصره ليلة القدر
يدل على فضل ابن طولون همة　　محلقة بين السماكين والغَفْر(٢)
فان كنت تبغى شاهداً ذا عدالة　　يخبر عنه بالجلى من الأمر
فبالجبل الغربى ، خطة يشكر　　له مسجد يغنى عن المناطق الهَذْر(٣)

* * *

ثم تأمل قول «محمد بن طشويه» فى (الميدان) الذى بناه ابن طولون(٤) : —

من لم ير الهدم للميدان لم يره　　تبارك الله ! ما اعلاه وأقدَرهُ !
لوْ ان عين الذى أنشأه تبصره　　والحادثات تعاديه ، لاكبره

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ — ص ١٤٢ — ١٤٣
(٢) الغفر : ثلاثة أنجم صغار ينزلها القمر ، وهى من الميزان
(٣) النجوم الزاهرة : الجز الثالث ص ١٤١ — ١٤٢
(٤) الكندى — القضاة والولاة : ص ٢٦٣

وأين من كان يحميه ويحرسه   من كل ليث يهاب الموت منظرهُ
صاح الزمان بمن فيه ففرّقهم   وحط ريب البلى فيه فدعثره

. . . .

أين ابن طولون بانيه وساكنه   أماته الملك الأعلى فأقبرهُ
ما أوضح الأمرَ لو صحّت لنا فكرٌ   طوبى لمن خصّه رشدٌ فذكّرهُ (١)

☆ ☆ ☆

وقول « احمد بن اسحق » فيه أيضاً : —

وكأن الميدان ثكلى أصيبت   بحبيب صباحَ ليلةَ عُرسِ
تتغشى الرياح منه مَحَلاً (٢)   كان للصون فى ستور الدمقس

☆ ☆ ☆

— وقول القائل فيهم :

آل طولونَ كنتمُ زينةَ الأر   ض فأضحى الجديدُ أهدامَ (٣) لُبْس

☆ ☆ ☆

— وقول « ابن أبى هاشم » متفجعاً يبكى ديار بنى طولون :

يا منزلا لبنى طولون قد دثرا   سقاك صوب العوادى القطر والمطرا
يا منزلا صرت اجفوه واهجره   وكان يعدِل عندى السمع والبصرا
بالله عندك علم من أحبتنا   أم هل سمعت لهم من بعدنا خبراً (٤)

☆ ☆ ☆

---

(١) النجوم الزاهرة - الجزء الثالث ص ١٤٢ - ١٤٣

(٢) أصلها محلاً بمعنى منيع (٣) الأهدام جمع هدم وهو الخلق من الثياب

(٤) النجوم الزاهرة - الجزء الثالث ص ١٤٢ - ١٤٣

وهكذا درج الشعر فى العصر الطولونى من طوره العربى البحت ، وبعد عن أغراضه البدائية، إلى طور آخر جديد، فغدا شعراً قومياً مصرياً يُترجم عن أحوال البلاد السياسية ، ويشيد بعظمة الدولة التى أنشأها الطولونيون؛ وقصارى ما تطمع فيه الدولة، أن تكون من القدرة على تحقيق المثل العليا ، والعدل ، والعمل على رفاهية الأهلين ، بحيث يتعلق الناس بها ويأسفون على ضياع ملكها.

وخير ما يمثل شعر هذا العصر ، شعر « سعيد القاص » فهو جيد اللفظ واضح المعنى ، ورائيته المشهورة تلخيص طيب لتاريخ الدولة الطولونية ، واشادة بمآثرها فى الحياة العامة ، فهو يذكر بنى طولون بخير ما يكون الذكر ، ويتأسف على فقدهم بأقوى ما يكون الأسف ، ثم هو يذكر مخلفاتهم مفاخراً معتزاً . وهذا قوله فى « المسجد الكبير » : —

فبالجبل الغربى خطَّةِ يشكرٍ ... له مسجد يُغنى عن المنطق الهَذْرِ

. . . .

بناه بآجر وساج وعَرْعَرٍ ... وبالمرمر المسنونِ والجصِ والصخر
بَعيدُ مدى الأقطارِ ، سامٍ بناؤُهُ ... وثيقُ المبانى، من عقودومن جُدْرِ
فسيح الرحاب يحسر الطرف دونَهُ ... رقيقُ النسيم، طيبُ العرف والنشر

وهو القائل فى مسجد « التنور » : —

وتنُّور فرعونَ الذى فوق قُلَّةٍ ... على شاهقٍ عالٍ ، على جبلٍ وَعْرِ
بنى مسجداً فيه يروق بناؤُه ... ويهدى به فى الليل ، إن ضل من يسرى
تخال سنا قنديله وضياءَهُ ... سهيلا — إذا ما لاح فى الليل للسفْرِ

وهو يقول فى « السقاية والقناطر : —

وعَيْنٍ مَعين الشرب عينٍ زكيّةٍ | وغير أجاجٍ للرُّواة وللطُّهرِ
كأن وفودَ النّيل فى جنباتها | تروحُ وتغدُو بين مدٍّ إلى جَزْرِ
فأرقأها (١) مستنبطاً لمعينها | من الارض من بطن عميق إلى ظهر
بناءٌ لو أن الجن جاءت بمثله | لقيل لقد جاءت بمستفظعٍ نُكْرِ
يمر على أرض المعافرِ كلّها | وشعبانَ والأخمورِ والحيِّ من بِشرِ
قبائلُ لا نوء السحاب يمدُّها | ولا النيل يرويها ولا جدولٌ يجرى

— وهو يقول فى المارستان الكبير :

ولا تنس مارستانَه واتساعَهُ | وتوسعةَ الأرزاق للحولِ والشّهرِ
وما فيه من قُوّامِه وكُفَاتِه | ورفقهمُ بالمعْتفِين ذوى الفَقْرِ
فللميّتِ المقبورِ حسنُ جِهَازه | وللحىّ رفقٌ فى علاجٍ وفى جَبْرِ

— ويقول فى « حصن جزيرة الروضة :

وإن جئت رأس الجسر فانظر تأمّلاً | إلى الحصن أو فاعبر اليه على الجسر
ترى أثراً لم يبق من يستطيعهُ | من النّاس فى بدوِ البلادِ ولا حَضَرِ
مآثِرُ لا تبلى وإن بادَ ربُّها | ومجد يؤدى وارثيه إلى الفخر

— وهو القائل فى بكاء الدولة :

فمن يبك شيئاً ضاع من بعد أهلِهِ | لفقدهم فليبك حُزْناً على مصر
ليبكِ بنى طولون إذ بَان عصرهُم | فبورك من دهرٍ وبورك من عَصر

أفهل رأيت ترجماناً أفصح من هذا تعبيراً عن مجد هذه الدولة ، وتعلق الناس بها ، وأسفهم على زوالها ؟

---

(١) فى القاموس أرقأ بمعنى أصلح

والناظر فى شعر « سعيد القاص »[١] ، يرى نضوجاً غير مألوف فى شعر القرنين الأولين للهجرة ، ويرى فيه فوق ذلك تمجيداً واشادة بدولة ، بعدأن كان الشعر فيما مضى يقال فى شخص بذاته — يمدحه أو يهجوه ، أو فى فتنة من الفتن ، أو فى التنافر والتنابذ بين العشائر .

٭ ٭ ٭

وغداة سقوط الدولة الطولونية وعودة مصر إلى الحكم العباسى ، نرى محاولة قوية ترمى إلى العودة إلى حكم الطولونيين — إذ يقوم «ابن الخلنجى» أحد أشياعهم ، بمهاجمة مصر من الشام باسم «ابراهيم بن خمارويه» الطولونى ، ويستولى على الفسطاط ، وينتصر على «عيسى النوشرى» والى مصر — فيمدحه «اسماعيل بن هاشم» ، إذ يرى فيه بطلا مصرياً مناهضاً للعباسيين ، ومخلصاً لمصر من أحوالهم بقوله :

أميرَنا يا ابن البهاليل الغُرَرْ   شفيت من عدونا أبى الأغَرّ
صدورَنا وقيت من كل حذَرْ   إذ جاء فى الشوك الينا والشجرْ
فى جحفلٍ كموجِ بحرٍ قد زَخرْ   يتبعُه أهلُ البوادى والحضرْ

٭ ٭ ٭

صبرت إذ لاقيته[٢] ، وما صبرْ   فر فى أسرعِ من لمح البصرْ
يقطر منه بوله قطرَ المَطَرْ   أحدَثَ فوق سرجه وما شعَرْ
(شفيتنا من ترْكِهم مع الخزَرْ)   ثم عفا أميرُنا لمّا قدرْ[٣]

---

(١) هو سعيد « القاضى » فى بعض الروايات .
(٢) لاقيت العدو
(٣) الكندى — القضاة والولاة : ص ٢٥٩

وهذا الشعر فوق دلالته على تعلق الناس بأهداب الطولونيين، فيه من التعبير عن شعور الكراهية للأجنبي من الترك والخزر ما فيه، وفيه فوق كل ذلك — نزوع إلى الاستقلال شديد.

وفي يقول احمد بن محمد الحبيشي فى « ابن الخلنجى » عند ما انتصر على عيسى النوشرى ممثل العباسيين :

غضِبْتَ لمصرَ وما نالها · وشرّدت بالخوفِ من غالَها
تلافيتها بعد إدبارها · وأقبلت تطلب اقبالَها
وكادت تُئوّهُ شوقاً اليك · وتظهر بالشوق بلبالها

. . . .

لقد فرج الله كرب النفوس · وبلّغها فيك آمالَها
ولمّا رأيناك فى مصرنا · منحنا الأمارةَ اجلالها

* * *

ونحن نترك الحكم على قيمة الآداب الطولونية لنقاد الأدب، غير أنه يجدر بنا أن نقول على كل حال، أن العصر الطولونى شاهد نضوجاً أدبياً لا بأس به، يهمنا من أمره علاقته بأحوال البلاد السياسية، أكثر مما تهمنا قيمته الفنية ذاتها.

* * *

حرص الطولونيون والاخشيديون من بعدهم على منافسة الخلافة ومجاراتها فى كثير من مظاهرها ـ وكأنما وجد هؤلاء وهؤلاء فى بذخ بغداد واستهتارها ومجونها شيئاً يحسن بهم أن يقلدوه، فأقبلوا على المجون واللهو وأخذوا منهما بنصيب، ونبغ من الشعراء الماجنين ومن الشعراء المتفكهين

كثيرون ؛ وكان « أبو هريرة بن أبى العصام » من شعراء بنى الاخشيد أكثر الشعراء مجوناً وعبثاً — وهو القائل :

كم لى « بدير القُصير » من قَصَفِ من كل ذى صبْوَةٍ وذى ظَرْفِ
لهوتُ فيه بشادنٍ غَنِجٍ تقصرُ عنه بدائعُ الوَصْفِ

وغيرُ هذا الشاعر آخرون قالوا شعراً فى المجانة منهم « قاضى البقر » واحمد بن أبى العصام وعبد الله بن محمد وابن البصرى ، وهم من شعراء العصر الاخشيدى(١) .

* * *

وقد كانت حياة الطولونيين والاخشيديين بما فيها من مباهج ومغريات تجتذب الشعراء من كافة أنحاء العالم الاسلامى ، فوفد على مصر فى حكم الأخشيديين أبو الطيب « المتنبى » الذى خلد اسم « كافور الاخشيد » فى مدحه وهجائه معاً ، كما وفد عليها كثير غيرُه من الشعراء .

---

(١) محمد كامل حسين — الادب المصرى الاسلامى

المظهر الأدبى - ٤

استطراد ...

الأدب يخطو بطيئا نحو القومية - السبب فى ذلك - الأدب الفاطمى أدب دعاية - وفود الشعراء على مصر لمدح الخلفاء - الاغراق فى المديح - شعر ونثر قيل فى الأعياد - نواة لأدب قومى - أثر الأزهر ودور العلم الفاطمية فى نشر الشيعية - الأيوبيون يحاربون المذهب الشيعى - المدارس السنية الأيوبية - الاشادة بفضل صلاح الدين فى الشعر - مصر موئل العربية وكنوزها فى العصر المملوكى - التصانيف - لغة الأدب ولغة الشعر - أثر الغزو التركى فى تدهور العربية - عودة العربية إلى القوة منذ عهد محمد على الكبير - أثر الأزهر ودار العلوم والنهضة الأخيرة .

وفيما يلى وصل سريع للحقائق :

١ — لم يَخْطُ الأدب نحو القومية بنفس الخطى الواسعة التى خطتها البلاد فى شتى النواحى — ومرجع ذلك فيما نظن ، رغبةُ المصريين أنفسهم فى الاستعراب ، تلك الرغبة التى ألحّت حتى ذهبت بأصحابها إلى نسيان أصلهم المصرى وانتحال العروبة — وظلّت لغة الفاتحين وثقافتهم وآدابهم هويّة الراغبين فى الاستعراب زمنا ؛ «وتأقلمت» الأجيال ، واشتركت الأعراف والطبائع — ولكن بقيت « العربية » عربية ، ولا غرابة — إذ لم يكن الى غير ذلك من سبيل : فالعربية لغة القرآن ولغة الحديث ، ولغة الشروح والتفاسير ، ولهذا بقى الأدب عربيا بحتا — بقى عربيا بمعنى أنه ظل يمجد عادات الأعراب وطبائعهم ويخلد أيامهم ، ويترجم عن جاهليتهم طوال القرنين الأولين من الهجرة فى مصر — ولهذا نجد أنه فى الوقت الذى تم فيه

تمصُّر الأعراب واستعراب المصريين، وتكون الأمة الجديدة، بقى الأدب عربياً أبعد ما يكون فى طوره الأول عن القومية — وان كان العصر الطولونى قد فاز من الأدب القومى بلون من ألوانه هو الشعر السياسى — ذلك الشعر الذى مجّد الطولونيين وشاد بذكرهم، واعتدّ بهم كأسرة جنحت الى الاستقلال .

* * *

فليس عجيبا اذن أن ينصرم القرن الثالث ، دون أن تظفر البلاد بأدب ينم عن القومية فى صورة قوية . وساعدت الدولة الفاطمية — وكانت طول حياتها دولة ذات مذهب خاص — على بعد الأدب عن الاغراض القومية . على أن الزمن لم يلبث أن مكن لها فى هذه الديار ، واصبح الفاطميون فى مصر قوة سياسية مناوئة أشد المناوأة للخلافة العباسية ، وتجلت علائم استقلالهم بهذه البلاد ، فكان ذلك بدء أحساس الأدباء والشعراء من الوافدين أو المقيمين بالروابط التى غدت تربط القوم بالوطن ، ومذ حدث ذلك بدأ الشعر يعبر عن القومية بعض التعبير — الا أن الكثرة من شعر هذا العصر انما قيلت فى مدح الخلفاء وتمجيدهم، دون غيرهما من الاغراض.

والحقُّ أن الفاطميين لم يعنوا بالأدب لذاته — بقدر اتخذوه وسيلة من وسائل الدعاية للمذهب الشيعى . ولقد أكثر الشعراء الشيعيون من مدح الخلفاء طلبا لعطائهم ، واقتفى أثرهم فى ذلك الشعراء السنيون .

واتسم الأدب الشعرى بوجه عام فى هذا العصر بالغلو والاغراق فى المبالغة، حتى دنا من الالحاد — ولما كانت سياسة الفاطميين ترمى الى منافسة الخلافة العباسية، فقد كثر تطلعهم الى المجيدين من الشعراء الذين يستطيعون

بهم أن يفاخروا شعراء المشرق . وذهب بعض الشعراء من السنيين ذاتهم الى مدى بعيد فى التشيع ، رغبة فى التكسب بالشعر — وأكثر الشاعر « ابن هانىء » وكان سنّيا ، من مدح « المعز » الفاطمى — والمتصفح لديوانه يجد الشاعر قد خلع على المعزّ من صفات الالوهية والنبوة ما تعاف الاذن أن تستمع اليه . ومن شعر « ابن هانىء » فى انتصار جيوش المعز على البيزنطيين فى سوريا : —

يومٌ عريض فى الفخار طويلُ ما تنقضى غُررٌ له وحُجولُ
لو ابصرتكَ الرومُ يومئذ درت أن الاله بما تشاءُ كفيل (!)
ياليت شعرى عن مقاولهم اذا سمعت بذلك عنك كيف تقول
وَدّوا وداداً أن ذلك لم يكنْ صدقاً وكل ثاكلٌ مثكولُ
....
سل رهطَ منويلَ ، وأنت غررته فى أى معركة ثوى مَنْويلُ

* * *

وكان الوزير « ابن كِلّس » والخليفة « العزيز » يغدقان النعم على الشعراء المادحين ، ومن اشهرهم فى عصر العزيز أبو عبد الله محمد « ابن أبى الجرع » الذى أكثر من مدح الخليفة ووزيره .

ولسنا فى حاجة الى أن ننقل هنا شيئا كثيرا مما قال هؤلاء فى مدح الخلفاء أو الوزراء أو القواد ، لان ذلك لا يهم فى بحث كهذا ، ويكفى أن نذكر أن كثيرا من الشعراء زار مصر فى العصر الفاطمى طمعا فى العطاء . ولقد أدت سياسة اجزال العطاء مهمتها فى اجتذاب كثير من الشعراء المجيدين ،

وصرفهم عن قول الشعر فى الخلافة العباسية ، وتوجههم نحو الخلافة الفاطمية يمدحونها . وساعد على زيادة وفود الشعراء من بغداد الى القاهرة تضعضع الخلافة العباسية ، وزوال ما كان يصدر عن بيت الخلافة من نعم على الشعراء . ومن اشهر الشعراء الذين رحلوا عن بغداد الشاعر «عبد الوهاب بن نصر المالكى» الذى يتأسف على فراق العاصمة العراقية بقوله : —

سلام على بغداد مِن كل منزل — وحق لها منى السلام المُضاعفُ
فوالله ما فارقتها عن قِلى لها — وإنى بِشَطَّىْ جانبيها لعَارفُ
ولكنها ضاقت علىَّ برحبها — ولم تكن الارزاقُ فيها تُساعفُ

* * *

ومن وفدوا على مصر فى هذا العصر الشاعر أبو الحسن «على بن ابراهيم» الذى مدح الافضلَ بقصيدة مطلعها : —

فمكةُ مصرٌ والحجيجُ وفودُهُ — ويمناهُ ركنُ البيتِ والنيلُ زمزمُ

* * *

وزارها كذلك « ابن البوين » وافدا من معرة النعمان ، وقد تمتع هذا الشاعر بعطف الافضل الذى قرّبه ولقبه «بأمين الملك» — يقول «ابن البوين» فى الأفضل أمير الجيوش ابن بدر الجمالى : —

يامَنْ تَنافَسُ فيه السمعُ والبصرُ — كما تغايرُ فيه الشمسُ والقمرُ
ومن تحكّم فى الارواح فاحتكمت — ألا يُحكَّمَ فيها بعده بَشَرُ

وكما وفد الشعراء على بلاط الفاطميين من المشرق ، كذلك وفد عليه شعراء من المغاربة منهم من مدح الآمر والحافظ .

* * *

ومن الشعراء الذين أكثروا من مدح الخلفاء الفاطميين « على بن عبادة » من شعراء الاسكندرية — وكان يخص الخليفة « الحافظ » بمدائحه .

* * *

ويعتبر الشاعر « عمارة اليمنى » الذى أقام بمصر زمنا ، من أشهر الشعراء الذين مدحوا الفاطميين . وله فى مدحهم ميمية رائعة مطلعها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمداً يقوم بما أولت من النعم

* * *

وأنت ترى أن معظم الشعر قيل فى مدح الخلفاء ؛ ومنه جانب قيل فى تمجيد الدولة ، وهكذا جاء الأدب الفاطمى فى مجموعه بعيدا عن القومية — وما كان لدولة ذات هم خاص كالدولة الفاطمية ، أن تعنى بالصلة بين الأدب والبيئة ، أو بين الأدب والقومية ، فقد كان قصارى هم هذه الدولة أن تتخذ من مصر موطنا لبث الدعوة الشيعية ، ومركزا للعمل على تحطيم الخلافة العباسية . على أننا لا نستطيع على كل حال أن نغفل نصيب هذه الدولة من الجهاد فى سبيل مصر ، ورفعة شأنها وتوسيع رقعتها — فقد كانت لها فى هذا المضمار وقفات كريمة موفقة مع الروم البيزنطيين .

* * *

ومن الشعر ما قيل فى هذا العصر فيما استحدثته هذه الدولة من الأعياد الوطنية الدينية وغير الدينية ، كمولد النبي ويوم عاشوراء والاحتفال بوفاء النيل وغير ذلك ، لعله الشعر الذى يعبر بعض التعبير عن القومية . ومن ذلك قول « كافى الدولة » مهنئا أحد الخلفاء بوفاء النيل :—

لمن اجتماعُ الخلْق فى ذا المَشهدِ للنيل ، أم لك يابن بنت محمّدِ
أم لاجتماعكما معا فى موطن وافيتما فيه لأصدق مَوْعِـدِ
هـذا يفى ويعود ينقصُ تارةً وتسدُّ أنت النّقصَ إن لم يَزددِ

* * *

ومن الشعر ما قيل صراحة فى اغراض قومية كقول « عمارة اليمنى » فى الهرم :

خليـلى ما تحت السماء بنيّةٌ تُماثل فى أتقانها هرمى مصرِ
بنـاء يخاف الدهر منه وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهرِ
تنزه طرفى فى بديع سنائها ولم يتنزه فى المراد بها فكرى

* * *

ومن الأدباء من قال نثرا له قيمته الفنية ، ومن هؤلاء « ابن قادوس » — وله من كلام كان يذاع على الناس فى مناسبة وفاء النيل :

« النعمُ وإن كانت شاملة للأمم ، فأنها متفاضلة الأقدار والقيم ، فأولاها بشكر تنشر فى الآفاق أعلامه ، واعتداد تحكم بأدراك الغايات أحكامه ، نعمةٌ يشترك فى النفع بها العباد ، وتبدو بركتها على الناطق والصامت والجماد ، وتلك النعمة هى النيل المصرى ، الذى تبرز به الأرض الجرز (المنبتة للزرع) فى أحسن الملابس ، وتظهر حلل الرياض على القيعان والبسابس (الأرض القفر) ، وترى الكنوز ظاهرة للعيان ، متبرجة بالجواهر واللجين والعقيان ، فسبحان من جعله سببا فى انشار الموات ، وتعالى من ضاعف بهِ ضروب البركات ، ووفّـر به مواد الأرزاق والاقوات .

* * *

والحق أن الفاطميين قد كسبوا للقاهرة مكانة علمية وأدبية سامت بها بغداد مقر الخلافة العباسية ، فقد انشأوا بها الازهر وغيره من دور العلم والمكتبات والمراصد مما فاخرت به القاهرة بغداد عاصمة العباسيين . وليس يعيب بعض هذه المنشآت العلمية انها قامت فى الاصل لخدمة المذهب الشيعى، فان ذلك لا ينقص من قيمتها ولا يحقر من شأنها ، ووجد التراث العلمى الاسلامى فى مصر ملجأ أمينا وغدا الأزهر مع الزمن أعظم جامعات العلم فى الشرق .

* * *

٢ ـــ وكانت دولة الايوبيين دولة جهاد فى سبيل الاسلام ونصرته ، واعلاء شأنه ، شغلتها ظروف الدولة الخارجية والداخلية عن التفرغ للأدب والعلم ـــ وعلى الرغم من ذلك كانت للأيوبيين جهود جبارة فى القضاء على الشيعية ، فقد اقتلعوا بذورها بأنشاء المدارس السنية المعارضة لمذهب الشيعة . ومن هذه المدارس المدرسة الصالحية والمدرسة الكاملية ، وكانت تدرس بهما المذاهب الى جانب الحديث والقرآن .

ويرجع الى الاسرة الأيوبية كثير من الفضل فى الاحتفاظ بالتراث الاسلامى ووقايته من عدوان الصليبيين ، كما يرجع الى المماليك فضل خفظه من عبث التتار .

يقول نقيب الأشراف « احمد بن سعد » مهنئاً «صلاح الدين» بانتصاره فى بيت المقدس ، وهزيمة الصليبيين :

أترى مناماً ما بعينى أبْصِرُ   القدسُ يُفتَحُ والفرنجة تُكسرُ

ومليكهم فى القيد مَصفُودٌ ولم ... يُرَ قبلَ ذاك لهم مليكٌ يؤسرُ
قد جاء نصر الله والفتحُ الذى ... وعد الرسول فسبحوا واستغفروا

وفى هذا الشعر من الاعتداد ببطل مصر والاسلام ما فيه .

* * *

ويقول « العماد الأصفهانى » فى صلاح الدين :

شكا اليك بنو الاسلام يُتْمهمُ ... فقمت فيهم مقام الوالد الحدب
فى كل دار من الافرنج نادبة ... بما دهاهم فقد باتو على نَدَبِ

* * *

٣ — وقدّر لمصر فى عهد سلاطين المماليك أن تكون المثابة الأخيرة للعربية وكنوزها النفيسة ، فقد حمَت الآدابَ والعلومَ كما حمت الفنونَ من عبث التتار والمغول الذين اشتد ضغطهم على آسيا الغربية وخربوا معظم مدنها العامرة ، ودهموا بغداد ودمروا كنوز العلم فيها ، وفر أمامهم رجال الفنون والأدباء والشعراء واتخذوا من الشام ومصر وقاية لهم وأمناً .

وقف المماليك سداً منيعاً فى وجه هؤلاء المغيرين ، وأنقذوا بذلك الحضارة الاسلامية فى مصر من عبث محقق ، وحمَوا الوافدين عليهم من رجال العلم والأدب والفن ، على نحو ما حمت القسطنطينية كنوز العلم والعلماء بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية .

وفى كنف هؤلاء السلاطين الأقوياء أتيح لكثير من المؤلفين والمصنفين أن يضعوا خير ما أنتج المسلمون فى التاريخ والأدب والفقه وعلوم اللغة .

وهاجر إلى مصر كثير من علماء الاندلس وأدبائها هرباً من ظلم الاسبانيين بعد أفول نجم العرب هناك .

وفى هذا العصر ارتقت كتابة التدوين وجرت على أصول الاقيسة المنطقية، ونقلت عن الائمة وأكثرت من الاستدلال بالادلة العقلية والنقلية . ومن أشهر أصحاب التصانيف فى العصر المملوكى ابن خلدون والمقريزى وابن منظور وابن خلكان وابن حجر العسقلانى والسيوطى والنويرى وأبو المحاسن والقلقشندى وابن مالك والشاطبى وغيرهم . وكان فى تصانيف هؤلاء جلّ العوض عما لحق العربية من الخسائر على يد التتار . ويعتبر عصر المماليك بالنسبة للمصنفات والتآليف من أزهى عصور مصر الاسلامية وأزخرها بجمع شتات العلوم . وتعتبر مقدمة ابن خلدون وخطط المقريزى وتاريخ ابن خلكان أروع ما كتب فى هذا العصر . وهى ابتكار وتجديد لم يسبق اليه مؤلف ألف فى النواحى التى طرقها هؤلاء .

* * *

ولغة التأليف فى هذا العصر قوية رصينة لا بأس بقوتها ورصانتها ، وعلى الرغم من أن الحكام أنفسهم كانوا لا يجيدون العربية ، فأنهم كانوا حماة للعلم والادب ليس فى ذلك شك . وفى كنفهم عاش عدد كبير من أجلة العلماء والادباء يصنفون ويكتبون نثراً ونظماً .

ومن أشهر شعراء هذا العصر « ابن النبيه المصري » المتوفى ٦١٩ هـ ، ومن شعره : —

الناس للموت كخيل الطرادْ	فالسابق السابق منها الجوادْ
والله لا يدعو إلى داره	إلا من استصلح من ذى العبادْ
والموت نقاد على كفه	جواهرٌ يختار منها الجيادْ

وأنت ترى ما فى معنى « ابن النبيه » من فلسفة وحكمة ، وما فى لفظه من رصانة وقوة .

ومنهم « ابن نباته المصرى » المتوفى ٧٦٨ للهجرة الذى يقول فى الزهد :

استغفر الله لا مالى ولا ولدى آسى عليه إذا ضم الثرى جسدى
عفت الاقامة فى الدنيا لو انشرحت حالى فكيف! وماحظى سوى الفكر
وقد صدئت ولى تحت التراب جلا أن التراب لجلاء لكل صدى

* * *

٤ — ومن الشعر ما قيل على طول هذا العصر فى أغراض تمت إلى البيئة المصرية ومعالمها بسبب قوى .

ومن ذلك قول الشيخ برهان الدين القيراطى :

روت لنا مصر عن فواكهها أخبار صدق صحيحة الخبر
وكل ما صح من محاسنها أرويه عن خوخها عن « الزهرى »

* * *

وقول الشريف العقيلى فى الفسطاط والمقطم : —

أحن إلى الفسطاط شوقاً وانني لادعو لها ألا يحل بها القطر
تبدت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر

* * *

ومنه قول « سعد الدين بن جباره » فى الاهرام :

لله أى غريبة وعجيبة فى صنعة الاهرام للألباب
أخفت عن الاسماع قصة أهلها ونضت عن الابداع كل نقاب
فكأنما هى كالخيام مقامة من غير ما عمد ولا أطناب

* * *

وقول الشيخ « صلاح الدين بن ايبك الصفدى » يتعشق مصر :

لم لا أهيم بمصر وأرتضيها وأعشق
وما ترى العين أحلى من مائها إن تملّق

* * *

وقول الشيخ « زين الدين عمر بن الوردى » فى ديار مصر والنيل :

ديار مصر هى الدنيا وساكنها هم الانامُ فقابلْها بتقبيل
يا من يباهى ببغدادٍ ودجلتِها مصرٌ مقدّمةٌ والشرحُ للنّيلِ

* * *

وقول « ابن سلار » فى الاشادة بمصر ونيلها : —

لعمرك ما مصرٌ بمصرٍ وإنما هى الجنّةُ العليا لمن يتذكّر
وأولادُها الوِلدان من نسل آدمٍ وروضتُها الفردوس والنيل كوثر (١)

* * *

ومنه قول الشيخ عبد الله الشبراوى (م١١٧٢هـ) فى التشوق إلى مصر :

أعدْ ذكر مصر أن قلبيَ مُولعٌ بمصرَ ومن لى أن ترى مقلتى مصرا
وكرّر على سمعى أحاديث نيلِها فقد ردّت الامواجُ سائلَه نهرا
بلادٌ بها مدّ السماحُ جناحَه وأظهر فيها المجدُ آيتَه الكبرى

* * *

وفى أواخر عصر المماليك أدرك الضعف اللغة العربية وأصبحت إلى العامية أقربَ ، وانحطت لغة الادب وتفهت أغراضه ، وأدركه البوار التام بفتح السلطان سليم العثمانى لمصر سنة ١٥١٧ ميلادية ، وحلول التركية محل العربية .

* * *

٣ — وفى العصر العثمانى وصلت العربية إلى الدرك الاسفل ، بسبب حلول التركية محلها كلغة رسمية . وظهر ضعف العربية جلياً فى

(١) النجوم الزاهرة — الجزء الاول ص ٤٢/٥٤

التأليف . وكتابات « الجبرتى » خير شاهد على ما صارت اليه اللغة العربية قبيل الحملة الفرنسية من الضعف والركاكة .

* * *

٤ — وعادت العربية فقدر لها النهوض من جديد فى عصر الاسرة المحمدية العلوية . وكان للأزهر بعض الفضل فى احيائها . وفى عصر اسماعيل أنشئت « دار العلوم » ، وكان لانشائها أعظم الاثر فى النهوض باللغة العربية وآدابها بعد سبات دام طويلا . وكان للثورة العرابية كما كان لحركات النهوض القومى فى أوائل هذا القرن ، واحتدام الآراء فى ميادين الاجتماع والسياسة والادب ، وقيام الحياة الدستورية ، أثره المحمود فى اللغة .

ومما ساعد على قوة النهضة الادبية فى هذا العصر الاخير اتصال مصر باوروبا ، واقتباسها من آدابها ، وعناية كثير من المستشرقين بالدراسات الشرقية الاسلامية — وفى الحقبة الاخيرة بدأ فريق من المصريين حركة مباركة لاستئناف الدراسات الاسلامية، مستعينين بطرق المستشرقين العلمية فى البحث ، دون أن يقعوا فيما وقع فيه هؤلاء المستشرقون من أخطاء سببها عدم تمكنهم من لغة الضاد .

انتهى البحث بعون الله

ملاحق :

الملحق الاول

فى مصر وأهلها

خصت مصر بكلام نسبه العرب الى آدم ونوح ومحمد عليهم السلام ، وبأقوال قيل انها جرت على السنة نفر من الصحابة والرواة ، أثبتها كتّاب الأدب والتاريخ . وفيما يلى جانب مما ورد فى حق مصر وساكنيها ـ وهو فى ذاته محتاج الى التمحيص الشديد؛ بيد أن ذلك لا يكاد يهمنا فى هذا الموضع، اذ المقصود بايراد هذا الكلام مجرد تصوير لما كان يدور فى أذهان العرب عن هذاالبلد الطيب الذى فتح الله عليهم ، وعن أهله الذين رأى فيهم العرب ذوى قربى ـ فعدوهم أخوالا وأصهارا .

* * *

١ ـــ من كلام يرويه النويرى فى « نهاية الأرب » منسوبا إلى آدم عليه السلام ! : « ... لا خَلَتْكِ يامصر بركة، ولا زال بك حفَظَة ، ولا زال منك مُلْكٌ وعزّ . يا أرضَ مصر : فيك الخبايا والكنوز، ولك البرّ والثروة ، سال نهرُك عسلاً ، كثّر الله رزقك ، ودرّ ضَرْعَكِ ، وزكا نَباتُكِ ، وعظُمت بركتُكِ ، وخَصِبْتِ ، ولا زال فيك يامصر خَيْرٌ ما لم تتجبّرى وتتكبّرى أو تخونى ، فاذا فعلتِ ذلك ، عَدَاكِ شَرٌّ ـــ ثم يَغُورُ خيرُك »

* * *

٢ ـــ ومن كلام منسوب إلى عبد الله بن عمرو بن العاص: « لما قسّم نوحٌ عليه السلام الأرض بين ولده، جعل لحام مصر وسواحلها والغَرْبَ وشاطىءَ النّيل ـ فلما بلغ (بيصر) بن حام العريش قال: «اللهم ان كانت هذه

هي الأرض التي وعدتنا على لسان نبيك نوح، وجعلتها لنا منزلا، فاصرف عنا وباها (وباءها)، وطيب لنا ثراها، واجمع ماها (ماءها)، وانبت كلاها (كلأها)، وبارك لنا فيها، وتمم لنا وعدك، انك على كل شيء قدير، وانك لا تخلف الميعاد» — وجعلها بيصر لابنه «مصر» وسماها به.(١)

* * *

ومن كلام منسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

٣ — «انكم ستفتحون بلادا يُذكَر فيها القيراطُ، فاستوصوا بأهلها خيرا، فان لأهلها نسباً(٢) وصهراً.(٣)» — وفي رواية أخرى:

«ستفتحون مصر — وهي أرض يسمى فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرا، فان لهم ذمّةً ورحما.(٤)»

٤ — «الله الله في قبط مصر، فانكم ستظهرون عليهم، ويكونون لكم عدة».(٥) وفي رواية أخرى: «الله الله في أهل الذمة، أهل المَدَرة السود السحم الجعاد، فان لهم نسبا وصهرا»

٥ — «استوصوا بالأدم الجعد»، فسئل رسول الله من الادم الجعد؟ فقال «قبط مصر — فانهم أخوال وأصهار، وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم» فقيل: كيف يكونون أعواننا على ديننا يارسول الله؟ فقال: «يكفونكم أعمال الدنيا، وتتفرغون للعبادة، فالراضي بما يؤتى اليهم كالفاعل بهم، والكاره لما يؤتى اليهم من الظلم كالمستنزه عنهم»(٦)

---

(١) النويري — نهاية الأرب جـ ١ ص ٢٤٧ الطبعة الأميرية.

(٢) المراد بالنسب «هاجر» أم اسماعيل عليه السلام. وكان بعض ملوك مصر قد وهبها لزوجته «سارة»

(٣) والمراد بالصهر «مارية القبطية» أم ابراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم — القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٧٩

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة (القاهرة ١٣٢٧ هـ) ص ٥

(٥) و (٦) راجع ص ٦٥ من هذا البحث

٦ — « اذا فتح الله عليكم مصر، فاتخذوا فيها جندا كثيفا، فذلك الجند خير أجناد الارض، فقيل — لم يارسول الله؟ — قال «لانهم وأزواجهم فى رباط الى يوم القيامة »

٧ — « مصر أطيب الأرضين ترابا، وعجمها أكرم العجم نصابا. »(٣)

* * *

٨ — وقال الكسائى : « النقباء ثلاثمائة ، والنجباء سبعون ، والبدلاء أربعون ، والاخيار سبعة ، والعُمد أربعة ، والغوث واحد ، فمسكن النقباء المغرب، «ومسكن النجباء مصر»، ومسكن الابدل الشام ، والاخيار سياحون فى الارض ، والعمد فى زوايا الارض ، ومسكن الغوث مكة . »(٢)

* * *

٩ — « ومن كلام منسوب إلى عبد الله بن عمر : قبط مصر أكرم الاعاجم كلها ، وأسمحهم يدا ، وأفضلهم عنصرا ، وأقربهم رحما بالعرب عامة، وبقريش خاصة — ومن أراد أن يذكر الفردوس أو ينظر الى مثلها فى الدنيا، فلينظر الى أرض مصر ، حين يخضر زرعها وتنور ثمارها . »(٤)

* * *

١٠ — وقال عمرو بن العاص: « ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة »

* * *

---

(١) النجوم الزاهرة : ج ١ ص ٢٩

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ص ٧

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٩

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ص ٧

١١ — ويقول الكندى : « جبلها مقدس ، ونيلها مبارك، وبها الطور الذى كلّم الله تعالى عليه موسى عليه السلام . »

* * *

١٢ — ويروى « الجاحظ » فى الروض المعطار ، « أن عيسى بن مريم عليه السلام ولد بها بكورة اهناس . »(١)

* * *

١٣ — ويقول المسعودى: وصف الحكماء مصر، فقالوا: « ثلاثة أشهر لؤلؤةٌ بيضاء ، وثلاثة أشهر مسكةٌ سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء »

(فاللؤلؤة البيضاء الوقت الذى يغطى فيه ماء النيل أرضها ، والمسكة السوداء الوقت الذى يغيض فيه الماء وتنكشف الأرض فيبدو الطين ، والزمردة الخضراء زمان طلوع الزروع، والسبيكة الحمراء وقت هيج الزرع واكتهاله .)

* * *

١٤ — ويقال فى مصر : «لو ضرب بينها وبين غيرها من البلاد سورٌ ، لغنى أهلها بها عما سواها ، ولما احتاجوا إلى غيرها من البلاد . »(٢)

* * *

١٥ — وقال « ابن الأثير » فى عجائب المخلوقات : « هى أقليم العجائب

---

(١) ولد المسيح فى « بيت لحم » فى فلسطين - ولكن القبط ذهبوا فى وقت ما إلى أنه عليه السلام ولد فى الطيبائيد فى صعيد مصر (راجع ص ٣٢) وهى دعوى يكذبها التاريخ - ومن أمثالها القول بولادته فى كورة اهناس .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨١

ومعدن الغرائب ، كان أهلها أهل ملك عظيم ، وعز قديم ، وأقليمها أحسن الأقاليم منظراً ، وأوسعها خيراً ، وفيها من الكنوز العظيمة ، ما لا يدخله الاحصاء — حتى يقال ، ما فيها موضع إلا وفيه كنز »[١] .

* * *

١٦ — سئل « احمد ابن المدبّر » صاحب خراج مصر فى أول ولاية احمد بن طولون ، عن مصر فقال :

« كشفتها فوجدت غامرها أضعاف عامرها ، لو عمرها السلطان لوفت له بخراج الدنيا » .

١٧ — ويقال وصفها «عمرو بن العاص» للخليفة « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه بقوله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء[٢] ، وشجرة خضراء ؛ طولها شهر ، وعرضها عشر[٣] ؛ يكنُفُها جبل أغبر ، ورمل أعفر ؛ يخط وسطَها نيلٌ مبارك الغدَوات ، ميمون الروحات ، تجرى فيه الزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر ، له أوانٌ يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها — حتى إذا ما أضلخمَّ عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض ، إلا فى صغار المراكب وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن فى المخايل وُرقُ الأصائل ، فاذا تكامل فى زيادته ، نكص على عقبيه ، كأول ما بدأ فى جريته ، وطما فى درّته ، فعند ذلك تخرج أهل ملّة محقورة ، وذمة مخفورة ، يحرثون بطون

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٨١

(٢) سوداء — ولعله يشير إلى لون طينها الخصب

(٣) لعل المراد عشرة أيام .

الأرض، ويبذرون بها الحبّ، يرجون بذلك النماءَ من الربّ؛ لغيرهم ما سعوا من كدهم، فناله منهم بغير جدهم(١) — فاذا احدق الزرع وأشرق، سقاه الندى، وغذاه من تحته الثرى — فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء، إذا هى عنبرة سوداء، فاذا هى زمرّدة خضراء، فاذا هى ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخالق لما يشاء. الذى يصلح هذه البلاد ويُنَمّيها، ويقرُّ قاطنيها فيها(٢)، ألا يقبَل قول خسيسها فى رئيسها، وألا يُستأدَى خراج ثمرة إلا فى أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترعها — فاذا تقرّر الحال مع العمال فى هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى يوفق فى المبدأ والمآل.(٣)

* * *

---

(١) لعله يشير بذلك إلى بغى الروم واستنزافهم أموال الأهلين - راجع ص ٣٦/٢٥

(٢) لعل فى ذلك اشارة إلى هجر الناس أراضيهم فى العصر الرومانى هربا مما كان مفروضا عليهم من الضرائب المبهظة.

(٣) راجع ص ٥٧/٥٨ — وهذا الكتاب محل شك كبير.

الملحق الثـــانى

فى ذكر بعض الولاة وأصحاب الخراج والقضاة
ممن مرّت أسماؤهم بالبحث

السلطة العليا	الوالى	صاحب الخراج	القاضى
الخلفاء الراشدون			
عمر	عمرو بن العاص ٦٤٠ م — ١٩ ﻫ	(الوالى)	قيس بن أبى العاص كعب بن يسار
عثمان	عبدالله بن سعد بن أبى سرح ٦٤٤ م — ٢٥ ﻫ	سليم بن عتر التجيبى	عثمان بن قيس
على	قيس بن سعد بن عبادة ٦٥٦ م — ٣٧ ﻫ	———	———
الأمويون			
معاوية	عمرو بن العاص ٦٥٨ م — ٣٨ ﻫ	(الوالى)	سليم بن عتر التجيبى
معاوية	مسلمة بن مخلد ٦٦٧ م — ٤٧ ﻫ	(الوالى)	»
مروان ـ عبدالملك	عبد العزيز بن مروان ٦٨٥ م — ٦٥ ﻫ	(الوالى)	بشير بن النضر
عمر بن عبدالعزيز	أيوب بن شرحبيل ٧١٧ م — ٩٩ ﻫ	حيان بن شريح	عبدالله بن عبد الرحمن بن حجيرة
هشام	الوليد بن رفاعة الفهمى ٧٢٧ م — ١٠٩ ﻫ	عبيدالله بن الحبحاب	يحى بن ميمون الخيار بن خالد
مروان الثانى	الحوثرة بن سهيل الباهلى ٧٤٥ م — ١٢٨ ﻫ	———	عبد الرحمن بن سالم الجيشانى
العباسيون			
الرشيد	الليث بن الفضل ٧٩٩ م — ١٨٣ ﻫ	محفوظ بن سليم	اسحق بن الفرات عبد الرحمن (العمرى)
	الحسين بن جميل ٨٠٧ م — ١٩١ ﻫ	———	———

السلطة العليا	الوالى	صاحب الخراج	القاضى
الأمين	حاتم بن هرثمة ٨١٠ م — ١٩٥ هـ	———	هاشم بن أبى بكر (البكرى)
المأمون	المطلب بن عبد الله الخزاعى ٨١٣ م — ١٩٨ هـ ٨١٥ م — ١٩٩ هـ	———	لهيعة بن عيسى الحضرمى
جند مصر (المأمون)	السرى بن الحكم ٨١٦ م — ٢٠٠ هـ ٨١٧ م — ٢٠١ هـ	(الوالى)	ابراهيم بن اسحق ابراهيم بن الجراح
«	أبو نصر بن السرى ٨٢٠ م — ٢٠٥ هـ	«	ابراهيم بن الجراح
«	عبيد الله بن السرى ٨٢٢ م — ٢٠٦ هـ	«	« «
المتوكل	عنبسة بن اسحاق الضبى ٨٥٢ م — ٢٣٨ هـ	احمد بن خالد	الحارث بن مسكين
«	يزيد بن عبد الله التركى ٨٥٦ — ٢٤٢ هـ	احمد بن المدبر	بكار بن قتيبة
المعتز	مزاحم بن خاقان ٨٦٧ م — ٢٥٣ هـ	«	«
	احمد بن مزاحم ٦٦٨ م — ٢٥٤ هـ	«	«
	أرجوز طرخان ٨٦٨ م — ٢٥٤ هـ	«	«
جند مصر	احمد بن طولون ٨٦٨ م — ٢٥٤ هـ	ابن المدبر - ابن طولون	بكار
المكتفى	عيسى النوشرى ٩٠٤ م — ٢٩٢ هـ	———	محمد بن عبدة بن حرب
الراضى «	محمد بن طغج الأخشيد ٩٣٤ م — ٣٢٣ هـ	(الوالى)	محمد بن احمد الحداد محمد بن الحسن بن أبى الشوارب الحسين بن أبى زرعة .

الملحق الثالث

فى بعض من سكن مصر

من الأعراب(١)

جذام من قدماء العرب الذين قدموا مصر مع عمرو بن العاص. وكانت لهم عدة اقطاعات منها «هربيط» «وتل بسطة» «ونوب» . وفى جذم عدة أبطن وأفخاذ وعشائر ، فمن بطونها بنو صُبَيب ، ومن أفخاذ صُبَيب : بنو سويد وبنو زيد وبنو بعجة، وهلبا سويد، وهلبامالك، وهلبا بعجة، وبردعة ورفاعة ونايل ، وبنو مسعود ، وبنو الوليد وبنو منظور ، وبنو قرّة الذين كانوا بالبحيرة عند مانزلتها «سنبس» فى العصر الفاطمى، وكذلك بنو ردّاد. ومنهم بنو كحيل بن قرة. وكانت مساكن جذام بالحوف (الشرقى) عامة، وبين منية غمر وزفيتا خاصة ، وكان فسادهم كثيرا ، ومنهم الوزير «شاور» ، واليه ينسب «بنو شاور» كبار منية غمر على أيام المقريزى ، ومنهم بنو عبد الظاهر وأهل «برهمتوش» ومن نسل جذام « بنو عبيد » الذين سكنوا بحرى الحوف الشرقى إلى ما يلى اشموم ، وكانت فزارة بنى سعد تسكن تل طنبول حتى نوب طريف ومنهم، عشائر «بدقدوس» «ودمريط» وضواحى القاهرة إلى أطراف الشرقية. ومن جذام ولخم جماعة سكنوا بالقرب من «الاسكندرية»

ونزلت قيس فى خلافة هشام بن عبد الملك الحوف الشرقى ، أحضرهم

---

(١) عن البيان والأعراب للمقريزى ، والقضاة والولاة للكندى

باذن من الخليفة، صاحب الخراج عبيد الله بن الحبحاب، وزاد عدد هؤلاء فى ولاية الحوثرة الباهلى .

ونزل « أولاد الكنز » من ربيعة صعيد مصر، زمن المتوكل العباسى . وانتقلت بطون من «قريش» الى الاشمونين والدقهلية ،وسكنت «جهينة» حول أسيوط ومنفلوط ، ونزل «بنو كلاب» بالفيوم وسكنت طوائف من «فزارة» اقليم الغربية وقليوب . وسكن قوم من « نصر بن معاوية » من هوازن حول « تنيس » ودمياط. وانتشروا فيما بعد فى أسفل الأرض . وكانت سنبس تسكن فلسطين وجوار غزّة ، وهناك اشتدت وطأتهم على ولاة مصر ، وشق أمرهم ، فاستدعاهم الوزير الفاطمى أبو محمد الحسن ابن على بن عبد الرحمن « اليازورى » وأقطعهم البحيرة ، وكان بها إذ ذاك بنو قرة . وفى حكم عز الدين ايبك التركمانى من المماليك البحرية رفض بنو قرة الاعتراف به وحاربوه ، ولكن الترك هزموهم ، وطاردوهم الى سخا فى الغربية ، ومن ذلك الحين ذل هؤلاء وتفرقوا فى اقليم الغربية مختلطين ببنى نصر وغيرهم ممن ضرب فى هذه الانحاء من عرب الحوف الشرقى الذين عبروا النيل وانساحوا فى بطن الريف .

ونزلت « بنو هلال » فى أسوان ، كما نزلت بطون من « لواته » البهنسا والجيزة والمنوفية .

وسكن «المروانيون» تنده وما حولها ، أما « بنو سهم» من ولد عمرو ابن العاص ، فقد سكنوا الفسطاط ، وتفرقوا بالصعيد بعد ذلك .

أما « كنانة » ، فقد نزل منهم فريق بجهة «ساقية قلته» وما يليها.

ونزل فريق «من الأنصار» من الأزد، بصعيد مصر، ومن ذراريهم «بنو محمد وبنو عكرمة» وكانوا يسكنون شمال منفلوط.

وسكنت «عوف» من قيس عيلان فى الصعيد، وعلى الأخص فى الفيوم، كما نزلوا البحيرة وبرقة حتى بلاد المغرب.

وسكنت من «لخم» بطون كثيرة «بالبر الشرقى» من بلاد مصر، ومنهم بنو مليح وبنو نبهان وبنو عبس وبنو كريم وبنو بكر، وديارهم من طارف بنا الى منحدر دير الجيزة؛ وبنو على وبنو سالم وبنو مدلج وبنو زعيس وديارهم من دير الجيزة الى ترعة صول ؛ وبنو مسعود وبنو جرير وبنو نصار ومسكنهم ساحل اطفيح ؛ وبنو عدى، وهم بنو موسى، ومساكنهم فيما يلى ساحل اطفيح ؛ وبنو غنيم وكانوا يسكنون العدوية ودير الطين، وبنو عمرو وبنو حجرة وكانوا يسكنون حلوان وطرا.

وسكنت فرق من «لواته» ومن «فزارة» ومن «زنارة» ومن «هوارة» اقليم المنوفية.

وسكن عرب «الحماسة» وأصلهم من قريش، اقليم الدقهلية (المرتاحية)

وسكن «بنو هلال» بن عامر بن صعصعة بن معاوية من هوازن، بلاد الصعيد إلى عيذاب — ومنهم بأخميم «بنو قرة» وبساقية قلته «بنو عمرو». ومن بطونهم بنو رفاعة، وبنو بحير، وبنو عزيز، ومنهم بأصفون بنو عقبة وبنو جميلة.

ونزل «بنو جعفر» من بطون قريش بالصعيد الاعلى. وهم من نسل جعفر الطيار بن أبى طالب.

الملحق الرابع

فى منهج البحث ومراجعه

١ — البحث :

لما كان الغرض الأساسى من هذا البحث هو تتبع الحوادث التى أنتهت بتكوّن الأمة المصرية الأسلامية — وهى الامة التى تكونت تدريجاً ووضحت شخصيتها خلال قرنين ونصف قرن من الفتح العربى — ولما كان همى من هذه العجالة هو الأفصاح عن العوامل التاريخية والاجتماعية التى عملت على تكوين الأمة المصرية الاسلامية — فأنى أجد نفسى مضطرا إلى الوقوف بالبحث عند الحد الزمنى الذى أعتقد أن الأمة التى أبحث فى نموها ، قد تكونت فيه وبرزت — وفى يقينى أن ذلك تم واكتمل فى العصر الطولونى — لهذا انهيت البحث عند هذا الحد .

٭ ٭ ٭

٢ — الاستطرادات

غير انى حرصت ألا أقف بالقارىء عند « تمام التكوُّن » — بل أردت أن أصل له الحوادث وصلا سريعا ، بكلام مجمل يصل الماضى بالحاضر على نحو موجز يحفظ الفكرة التى أعالجها ماثلة فى الذهن ، حتى يقدّر لى أن انهض بالجزء الثانى من البحث — وهو الجزء الذى تكوّن هذه الاستطرادات نواته ، أو بعبارة أخرى ، هو الجزء الذى يبسط هذه الاستطرادات بسطاً من شأنه زيادة الافصاح عن قوميتنا المصرية الأسلامية .

٣ — الفكرة

ومن الحق على أن أقول أن مقالا كتبه عبد الملك حمزه بك ، ومقالا آخر كتبه الأستاذ محمد فريد أبو حديد ، وعددا من المحاضرات التى القاها الأستاذ عبد الحميد العبادى على طلبة دبلوم معهد الآثار الاسلامية بجامعة فؤاد الأول قبل عام ١٩٣٨ فى تكون الأمة المصرية الاسلامية — قد أوحت إلى جميعها بكتابة هذا البحث .

وأنا بلا جدال ، متأثر بالآراء الناضجة التى أدلى بها الاساتذة الأفاضل تأثراً يبدو لهم ، أكثر مما يبدو للقارىء — ولا عجب ، فأنا تلميذ «أبى حديد» وتلميذ «العبادى» — فأخذي عنهما ، وهضمى لآرائهما ، وانتفاعى بها ، ليس أمراً غريبا ، سيما — وأنا بأستاذَىَّ ، وبأسلوبهما فى البحث ، جد معجب ، وجد مشغوف .

* * *

٤ — قوة دفعها

ولا شك عندى أن فى الفكرة طلاوة ، وأن فى البحث حلاوة ، لعلهما سبب ما فى الموضوع من قوة دافعة على الكتابة — ولا أدرى ، أهو تأثرى بالفكرة ، أم تأثرى بحيوية هذه الأمة ، أم هو اعتزازى بحسن بلائها وشدة مراسها ، أم هى نعمة الاسلام على هذه الديار — لا أدرى حقا ، أى هذه الدوافع جميعاً ، هو الدافع القوي على انجاز هذا البحث .

وسواء كان الدافع هذا أو ذاك ، فأنى احمد الله الذى وفقنى الى اخراج الشطر الأول من قصة القومية المصرية الاسلامية .

٥ — مراجع البحث

وليس البحث فى حاجة الى كثرة المراجع ، إذ هو مستند فى الكثير الغالب على حقائق التاريخ ، وهى معروفة وليست محل أخذ وردّ — وهو فوق ذلك معتمد على مدى انتفاع الباحث بالحقائق التاريخية ، ولا سيما ما يمس منها الناحية الاجتماعية — فهو فى الواقع ليس الا ترجمة لبعض حقائق التاريخ إلى لغة الاجتماع .

والعبرة فيه بتفهم مدي فعل الحوادث التاريخية ، وفعل البيئة ، وأثر الثقافة الخاصة ، فى تكوين الرأى العام والمثل العليا ، وتعاون هذه العوامل جميعا ، على خلق الجماعات خلقاً جديد او صقلها وتصفيتها من الشوائب .

ومن المراجع ماهو أصلى ، ومنها ماهو آخذ عن المراجع الأصلية — ومنها ما أثبته فى ذيل الصفحات ، ومنها ما لم اثبته — اذ كانت الفائدة منه عامة مشكورة ، وأن كانت غير منظورة .

* * *

وفيما يلى ثبت بجميع المراجع التى كان لها الفضل ، فى انجاز هذا البحث :

المراجع العربية

١ ـ ابراهيم جمعه . . . . جامعة الاسكندرية فى العصر الاغريقى الرومانى .

٢ ـ ابن خلدون . . . . المقدمة

٣ ـ ابن عبد الحكم . . . . فتوح مصر واخبارها (مجلس المعارف الفرنساوى الخاص بالعادات الشرقية سنة ١٩١٤ ـ طبعة هنرى ماسيه)

٤ ـ ابن النديم . . . . الفهرست (طبعة ليبزج ١٨٧٢)

٥ ـ أبو المحاسن بن تغرى بردى . . . النجوم الزاهرة ـ الأجزاء من ١ ـ ٧ طبعة دار الكتب المصرية .

٦ ـ بطلر (الفريد) . . . . فتح العرب لمصر (تعريب محمد فريد أبو حديد)

٧ ـ حسن ابراهيم حسن . . . . تاريخ عمرو بن العاص

٨ ـ زكى محمد حسن . . . . كنوز الفاطميين (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٧)

٩ ـ » . . . . بعض التأثيرات القبطية فى الفنون الاسلامية (من مطبوعات جمعية محبى الفن القبطى ـ ١٩٣٧)

١٠ ـ » . . . . الفن الاسلامى فى مصر ـ الجزء الأول (مطبعة دار الكتب المصرية)

١١ ـ سليمان احمد حزين .... البيئـة والموقع الجغرافى وأثرهما فى تاريخ مصر العام ـ القاهرة ١٩٤٢

١٢ ـ السيوطى .... حسن المحاضرة ـ طبع القاهرة ١٣٢٧هـ.

١٣ ـ شغوات (نخلة بك صالح) .... تاريخ الخلفاء (طبعة هندية ١٩١٣)

١٤ ـ طه حسين بك .... مستقبل الثقافة فى مصر (طبعة مطبعة المعارف بالقاهرة)

١٥ ـ عبد الحميد العبادى .. .. سلسلة محاضرات الأستاذ عبد الحميد العبادى بالجامعة المصرية قبل عام ١٩٣٨

١٦ ـ ڤييت (جاستون) .... دليل موجز لدار الآثار العربية ١٩٣٩

١٧ ـ كرد على .... الاســـلام والحضـارة العربيـة (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤)

١٨ ـ الكندى .... كتاب الولاة والقضاة (طبعة جست بيروت ١٩٠٨)

١٩ ـ لجنة التاريخ القبطى .... تاريخ الأمة القبطية ـ طبعة ١٩٠٠

٢٠ ـ المقريزى .... الخطط (طبعة بولاق) ـ البيـان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب (طبعة ابراهيم رمزى بك)

٢١ ـ محمد كامل حسين .... فى الأدب المصرى الاسلامى.

٢٢ ـ ناصر خسرو .... سفر نامة

٢٣ ـ الماوردى .... الأحكام السلطانية (مطبعة السعادة)

المراجع الافرنجية

1. Ameer Ali (S.) . . . . Spirit of Islam.
2. Arnold & Grohman . . The Islamic Book.
3. Butler (A.) . . . . Islamic Pottery.
4. Butler (A.) . . . . Arab Conquest of Egypt.
5. Butler (A.) . . . . The Ancient Coptic Churches of Egypt.
6. Breasted. (J.H.) . . . . Ancient Times.
7. Chapot (Victor) . . . L'Egypte Romaine.
8. Creswell (K.A.C.) . . Early Muslim Architecture.
9. Diehl (Charles) . . . . L'Egypte Chretienne et Byzantine.
10. Diehl (Charles) . . . . La Civilization Byzantine au VI siècle.
11. Gayet . . . . L'Art Copte.
12. Hanouteaux . . . . . . Histoire de la Nation Egyptienne. (L'Epoque Ptolemaique et Romaine.)
13. Hitti (Ph.) . . . . History of the Arabs (Macmillan, London,
14. Kendrick (A.F.) . . . . Catalogue of Textiles from Burying - Grounds in Egypt, V. III, Coptic Period.
15. Kendrick (A.F.). . . . Catalogue of Mohammedan Textiles of the Mediaeval Period, London 1924.
16. Lane-Poole (S.). . . . A History of Egypt in the Middle Ages.
17. Le Bon (G.) . . . . . . Les Premières Civilisations.
18. Milne (J.) . . . . A History of Egypt under the Roman Rule.
19. Mayerhoff (M.) . . . . La fin de l'Ecole d'Alexandrie après quelques auteures Arabes, (Roma, 1932).
20. Pauty . . . . (Cat. Gén. du Musée Arabe) : Les Bois Sculptés.
21. Ross (D.) . . . . The Art of Egypt through the Ages (London, 1931).
22. Smith (Eliot) . . . . . The Diffusion of Culture.
23. Wells (H G.) . . . . . A short History of the world.
24. Wiet (G.) . . . . Histoire de la Nation Egyptienne, IV, (L'Egypte Arabe).

الصـــور

تصويبـــات

صفحة	سطر	خطـــأ	صواب
٢٢	١٢/١٣	وصفا نلمس فيه بشاعة الحـكم	وصفا نلمس فيه بشاعة أساليب الحكم
٣٢	٩	بدعوى جرثية	بدعوى جرثية [illegible]
٤٤	١٤	وعزدتها	وعزرتها [illegible]
٥٢	٣	الوليد بن رفاعة الفهرى	الوليد بن رفاعة الفهمى
٥٢	٤، ٦	ابن الحجاب	ابن الحبحاب
٥٣	١٠	الفهرى	الفهمي
٥٧	١	والمعتوهين والمساكين والعاجزين	والمعتوهون والمساكين العاجزون
٨٩	١٦	والملك الصالح من ملوك	والملك الصالح وغيره من ملوك
١١٢	١	تحلبها	تحلّيها
١٤٣	١٢	المعلى بن المعلى	المعلى بن العلى
١٤٤	٢٠	القاضى العمرى	القاضى عبد الرحمن العمرى — الكندى : القضاة والولاة ص ٣٩٤ / ٤٠٠
١٤٧	١٣	عن المناطق الهذر	عن المنطق الهذر
١٤٩	١٢	بشكر	يشكر
١٥٢	٤	وفى يقول	ويقول
١٥٤	٦	عربية	عربية

مطبعة كوستاتسوماس وشركاه